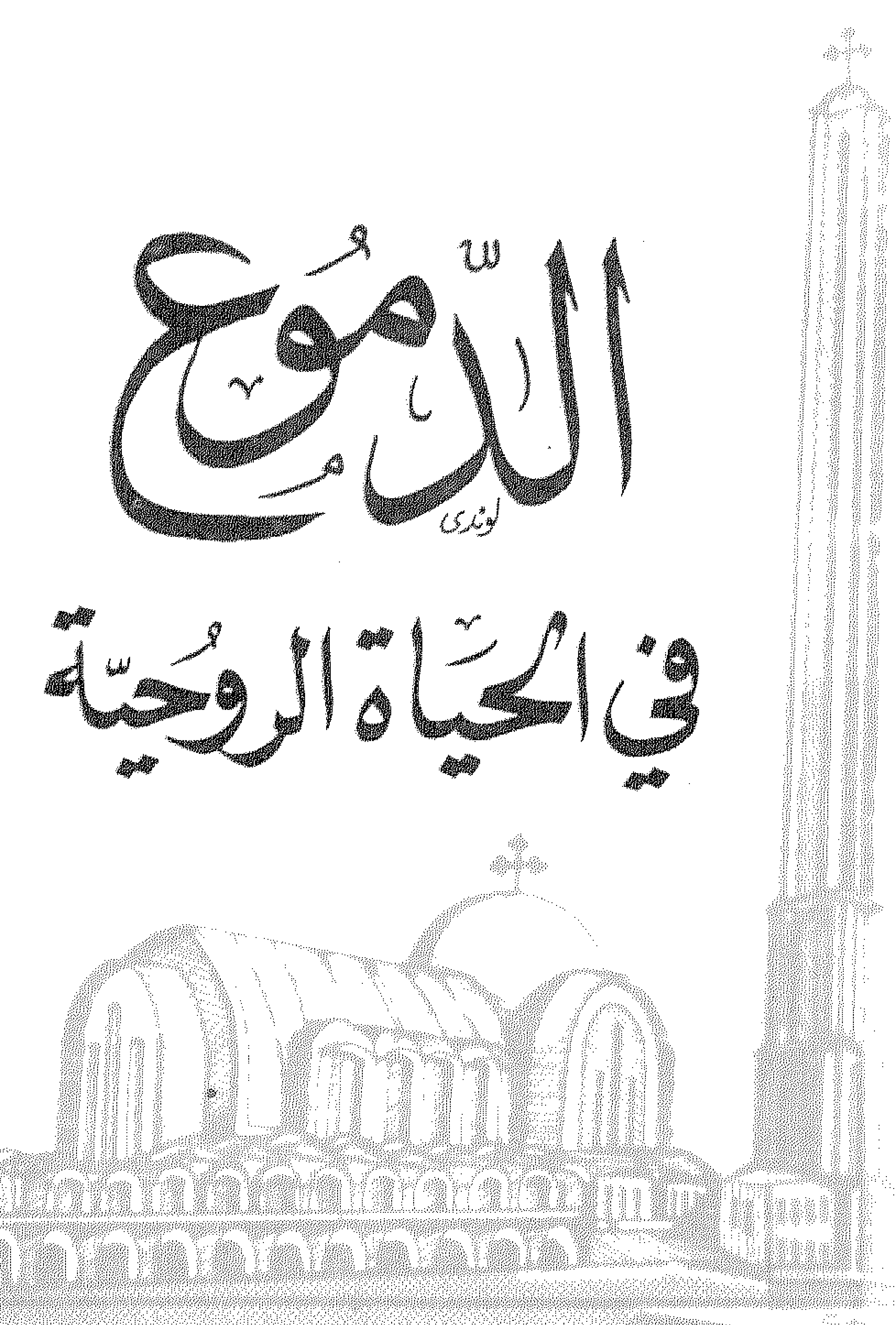
البابا شنوده الثالث

الدموع في الحياة الروحية



اهداءات ٢٠٠٢
بطريركية الأقباط الأرثوذكس
الاسكندرية





Tears
in Spiritual life

by H.H. Pope Shenouda III

3rd print الطبعة الثالثة

May. 1995 مايو ١٩٩٥

Cairo القاهرة

الكتاب : الدموع فى الحياة الروحية .
المؤلف : قداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث .
الناشر : الكلية الاكليريكية للأقباط الأرثوذكس .
الطبعة : مايو ١٩٩٥
المطبعة : الأنبا رويس الأوفست - العباسية - القاهرة .
رقم الإيداع بدار الكتب : ٤٦٦٣/١٩٩٠م .



قداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث

قصة هذا الكتاب

ترجع قصة هذا الكتاب إلى ثلاثين عاماً ...

كان ذلك سنة ١٩٦٠ ، وكنت فى مغارتى فى البحر الفارغ ببرية شيهيت . وكان لدىّ وقت لأجيب على أسئلة روحية يرسلها إلىّ بعض أبنائى الروحيين .

وفى إحدى المرات ، جاءنى خطاب يحوى العديد من الأسئلة ، أجبت على أكثر من عشرة منها ، وبقى هذا الموضوع . فقلت لصاحب الخطاب «ها أنا قد أجبتك على كل أسئلتك . وبقيت الدموع . حاضر يا (فلان) ... من عينى الإثنتين ...»

وحضرت النقاط الخاصة بالموضوع ، وبقيت معى ... ثم كانت رسامتى للأسقفية ، وألقيت محاضرة عن هذا الموضوع سنة ١٩٦٤ ... أخيراً عثرت على أوراقه كلها ، ورأيت أن أنشرها ، لئلا تتوه وسط أوراقى الكثيرة ، أو تضيع ...

البابا شنوده الثالث

يونيو ١٩٩٠م .



قمة الدموع

أسمى صورة للدموع ، هى قول الإنجيل فى قصة إقامة لعازر من الموت :

« بكى يسوع » (يو ١١ : ٣٥) .

إنها أقصر آية فى الكتاب المقدس . ولعلها فى نفس الوقت من أعمق الآيات فى الكتاب المقدس... ولعلها مثلها فى التأثير:

بكاء السيد المسيح على أورشليم (لو ١٩ : ٤١) .

إنها دموع أعمق من كل تأملاتنا ... فيها الحب ، والتأثر ، ورقة القلب وحساسيته ، والحنو ، وربما الحزن أيضاً ...

وفيها معانٍ أخرى لا أعرفها ...

من هنا يستطيع أن يصل إلى أعماقها ؟!

تطويب البكاء

★ طوّب السيد المسيح البكاء.

فقال «طوباكم أيها الباكون الآن، لأنكم ستضحكون» (لو٦ : ٢١) «طوبى للحزانى الآن، لأنهم سيتعزون» (متى ٥ : ٤).

★ وقيل فى المزمور (١٢٦ : ٥).

الذين يزرعون بالدموع يحصدون بالابتهاج

★ وقيل فى سفر الجامعة لسليمان الحكيم :

«الذهاب إلى بيت النوح، خير من الذهاب إلى بيت الفرح» «قلب الحكماء فى بيت النوح. وقلب الجهال فى بيت الفرح» (جا٧ : ٢، ٤). وأيضاً :

«الحزن خير من الضحك. لأنه بكآبة الوجه يصلح القلب» (جا٧ : ٣).

مما يدعو إلى الملاحظة أن الكنيسة تدعونا إلى البكاء على خطايانا فى كل يوم، فى صلاة الهجعة الثانية من صلاة نصف الليل، حيث نقول:

«اعطنى يارب ينابيع دموع كثيرة، كما أعطيت فى القديم للمرأة الخاطئة»...

«واجعلنى مستحقاً أن أبل قدميك اللتين اعتقتانى من طريق الضلالة، وأقدم لك طيباً فائقاً، وأقتنى لى عمراً نقياً بالتوبة».

وهكذا تضع أمامنا إنجيل المرأة الخاطئة (لو٧). لنصليه كل يوم فى نصف الليل، ونأخذ درساً من دموعها وتوبتها. ويقف كل منا ليصلى أمام الله ويقول:

أعطنى يارب ينابيع دموع كثيرة، لأبكى على كبريائى وغضبى وقسوتى ونجاستى، وتقصيرى، وأخطائى باللسان والقلب والفكر .. عدم محبتى لك وللناس، وقلة جديتى فى روحياتى، وقلة حرصى على حفظ وصاياك...

واعطنى أيضاً ينابيع دموع كثيرة، لأبكى على عدم محبتى.

إن الله يطلب منا أن نبكى باستمرار، ويقول لنا فى سفر يوئيل النبى:

«ارجعوا إليَّ بكل قلوبكم، وبالصوم والبكاء والنوح» (يوء ٢ : ١٢).

ويقول فى سفر ملاخى النبى :

«مغطين مذبح الرب بالدموع والصراخ» (ملا ٢ : ١٣).

نحن محتاجون إلى هذه الدموع، طالما نحن على الأرض، يكفى أن ربنا يسوع المسيح قال فى تطوبياته :

«طوباكم أيها الباكون الآن...» (لو٦ : ٢١).. وعبارة (الآن) تعنى هنا على الأرض. وعبارة «لأنكم تتعزون» تعنى هناك فى السماء.

لأن الدموع من ثمارها العزاء.

الفصل الأول

أنواع من الدموع

- دموع الصلاة .
- دموع التوبة ودموع الندم .
- دموع اليأس .
- دموع الاشفاق على الآخرين أو دموع المشاركة الوجدانية
- دموع الفراق في حالتي الموت أو الوداع
- دموع التلاقي بعد الفراق .
- دموع العجز أو القهر .
- دموع التأثر ، الحساسية ، الانفعال .
- دموع الحزن ، الحسرة ، الخسارة .
- دموع في الخدمة .
- دموع المحبة والفرح .
- دموع الشهوة .
- دموع زائفة .

ما أكثر أنواع الدموع فى حياة البشر، تختلف بحسب أسبابها . ونذكر هنا من بين هذه الأنواع :

١ ـ دموع الصلاة .

٢ ـ دموع التوبة ، ودموع الندم.

٣ ـ دموع اليأس .

٤ ـ دموع الإشفاق على الآخرين أو دموع المشاركة الوجدانية .

٥ ـ دموع الفراق . فى حالتى الموت أو الوداع .

٦ ـ دموع التلاقى بعد الفراق .

٧ ـ دموع العجز أو القهر .

٨ ـ دموع التأثر ، الحساسية ، الانفعال .

٩ ـ دموع الحزن ، الحسرة ، الخسارة .

١٠ ـ دموع فى الخدمة .

١١ ـ دموع المحبة ، والفرح .

١٢ ـ دموع الشهوة .

١٣ ـ دموع زائفة .

دموع الصلاة

وهى كثيرة جداً فى الكتاب المقدس ، وفى سير القديسين ، سنذكرها حينما نتحدث بالتفصيل عن دموع القديسين .

وسببها الحب ، والتأثر ، وعمق الصلاة التى تصدر من القلب ، مع مشاعر الاشتياق والحنين إلى الله ، أو عمق فى الطلب .

ومن أشهرها دموع داود النبى الذى قال للرب فى مزاميره « انصت إلى دموعى » (مز١١٩) .

ومن أمثلتها دموع حنة زوجة القانة . وقد ورد عن صلاتها أنها « صلت إلى الرب ، و بكت بكاءً ، ونذرت نذراً » (١صم ١ : ١٠ ، ١١) .

أمثلة الدموع فى الصلاة كثيرة جداً فى الكتاب المقدس ، وفى سير القديسين أيضاً (أنظر الباب الثالث) .

دموع الندم والتوبة

ومن أمثلتها فى الكتاب :

١ ـ دموع المرأة الخاطئة التى بللت قدمى المسيح بدموعها (لو٧ : ٣٨) .

كانت تبل قدميه بالدموع ، وتمسحهما بشعر رأسها . وقال السيد المسيح عنها إنها «غلست رجلىَّ بالدموع» وأنها أحبت كثيراً ، وغفر لها الكثير. وفضلها الرب على الفريسى الذى يشعر ببره ...

لم يكن لديها كلام تقوله ، أو تجرؤ أن تقوله ، فتكلمت دموعها .

الإنسان الشاعر بخطاياه ، النادم عليها ، يخجل أن يتكلم . وتضغط مشاعر الندم والحزن فى قلبه ، على منابع الدمع فى عينيه ، فيبكى . و يكون بكاؤه أصدق تعبيراً من أى كلام .

ربما يقول إنسان كلاماً بدون مشاعر ، أما البكاء فهو مشاعر بدون كلام ..

وهى مشاعر صادقة معبرة .

❊ ❊ ❊

ومن أمثلة دموع التوبة أيضاً :

٢ ـ دموع داود النبى فى توبته :

وهذه ما أعمقها فى قوله «تعبت فى تنهدى . أعوّم فى كل ليلة سريرى ، وبدموعى أبل فراشي» (مز٦ : ٦) .

وقوله أيضاً «أبكيت بصوم نفسي... جعلت لباسى مسحاً» (مز٦٩ : ١٠، ١١) «من صوت تنهدى ، لصق عظمى بلحمى... أكلت الرماد مثل الخبز، ومزجت شرابى بالدموع» (مز١٠٢ : ٥ ، ٩) .

❊ ❊ ❊

ولعل من الأمثلة البارزة لدموع الندم والتوبة :

٣ ـ دموع بطرس الرسول بعد إنكاره :

وفى ذلك يقول عنه الكتاب إنه «خرج إلى خارج ، وبكى بكاءً مراً» (متى٢٦ : ٧٢) .

وهنا نجد البكاء مصحوباً بمرارة فى القلب وفى الدموع .

❊ ❊ ❊

ومن أمثلة دموع التوبة أيضاً :

٤ ـ دموع الشعب كله فى توبة عامة :

وعنها يقول يوئيل النبى :

« ولكن الآن يقول الرب : ارجعوا إلىَّ بكل قلوبكم ، وبالصوم والبكاء والنوح . مزقوا قلوبكم لا ثيابكم ، وارجعوا إلى الرب إلهكم » .

« ليبكِ الكهنة خدام الرب بين الرواق والمذبح ، ويقولوا اشفق يارب على شعبك ، ولا تسلّم ميراثك للعار » (يوئيل ٢ : ١٢ ، ١٣ ، ١٨) .

وقد بكى الشعب كله بكاءً عظيماً أيام عزرا الكاهن بسبب خطاياهم « وصلى عزرا واعترف ، وهو باكٍ وساقط أمام بيت الله » (عز١٠ : ١) .

❋ ❋ ❋

وبالمثل يقول القديس بولس الرسول لأهل كورنثوس موبخاً « لم تنوحوا حتى يرفع من وسطكم الذى فعل هذا الفعل » (١كو٥ : ٢) .

و يقول القديس يعقوب الرسول :

«نقوا أيديكم أيها الخطاة ... اكتئبوا ، ابكوا ، ونوحوا ...» (يع ٤ : ٨ ، ٩) .

و يشرح ملاخى النبى هذا الأمر فيقول «..مغطين مذبح الرب بالدموع والبكاء والصراخ» (ملا ٢ : ١٣) .

❋ ❋ ❋

ومن أمثلة البكاء بسبب الخطية :

★ بكاء الذين طعنوا المسيح ، حينما يرونه فى مجيئه الثانى .

وفى ذلك يقول سفر الرؤيا :

هوذا يأتى على السحاب ، وستنظره كل عين ، والذين طعنوه . و ينوح عليه جميع قبائل الأرض» (رؤ ١ : ٧) .

ولكن النوح فى هذا المثال ، لا نضعه تحت عنوان التوبة ، وقد لا يتصف بالندم أيضاً . ربما تكون دموع الحزن والألم والحسرة ، بغير أمل ...

دموع الحزن

ولعل من أبرزها فى الكتاب :

دموع الحزن على الخطاة، الذين هلكوا أو رفضهم الرب .

ومن أمثلة ذلك : بكاء صموئيل النبى على شاول الملك . وفى ذلك يقول الكتاب «وناح صموئيل على شاول» (١صم١٥ : ٣٥)، «فقال له الرب : حتى متى تنوح على شاول ، وأنا قد رفضته ؟!» (١صم١٦ : ١) .

★ وبالمثل بكى بولس الرسول على الخدام الذين سقطوا وهلكوا .

فقال «لأن كثيرين من الذين كنت أذكرهم لكم مراراً ، والآن أذكرهم باكياً ، وهم أعداء صليب المسيح ، الذين نهايتهم الهلاك» (فى٣ : ١٨ ، ١٩) .

★ ويذكر سفر الرؤيا البكاء على بابل، المدينة العظيمة الخاطئة :

فيقول « وسيبكى و ينوح عليها ملوك الأرض، الذين زنوا وتنعموا معها، حينما ينظرون دخان حريقها، واقفين من بعيد لأجل خوف عذابها، قائلين: و يل و يل » (رؤ١٨ : ٩، ١٠).

❊ ❊ ❊

★ ألعلنا نذكر أيضاً بكاء داود على أبشالوم ؟!

إنه حقاً حزن على إبنه الذى مات، ولكن هناك نقطة حساسة وهى أنه مات هالكاً ... مات خائناً لأبيه، وثائراً عليه، ومحارباً ضده، وزانياً مع نسائه.

إن داود لم يبك على إبنه الذى ولدته إمرأة أوريا، وقال « هل أقدر أن أرده بعد ؟! أنا ذاهب إليه، وأما هو فلا يرجع إلىّ » (٢صم ١٢ : ٢٣) ... أما على أبشالوم فبكى.

لقد مات هالكاً، فلن يذهب إليه أبوه ... بل أنفصل عنه إلى الأبد ...

❊ ❊ ❊

★ ومن أمثلة البكاء بسبب الحزن بكاء داود وكل الشعب، لما غزا العمالقة مدينة صقلع وأحرقوها وسبوا نساءها ... هنا يقول الكتاب:

فرفع داود والشعب الذين معه أصواتهم، وبكوا حتى لم تبق لهم قوة للبكاء» (١صم ٣٠: ١- ٤).

موقف مؤثر حقاً.. وبكاء وصل إلى نهايته القصوى، حتى لم تبق لهم قوة للبكاء...

❋ ❋ ❋

★ ومن أمثلة بكاء الحزن، سفر مراثى ارمياء النبى كله...

إنه سفر البكاء والدموع... يدخل فى بكاء الحزن، ولكنه الحزن بسبب الخدمة، وبدافع من الغيرة المقدسة. و يصلح أيضاً أن يرثى به الإنسان ذاته...

دموع الفراق

ليس سهلاً على قلوب ارتبطت بالحب، أن تفترق، وبخاصة لو كان فراقاً بلا عودة إلى اللقاء، على الأقل على هذه الأرض...

ولذلك نجد فى هذا المجال أمثلة لقديسين وقديسات بكوا، بسبب هذا الفراق، ومن بين هذه الأمثلة:

★ بكاء أبينا ابراهيم على سارة.

وفى ذلك يقول الكتاب بعد موت سارة «فأتى ابراهيم ليندب سارة و يبكى عليها» (تك ٢٣ : ٢).

★ كذلك قيل عن مريم أخت لعازر، بعد موته: إنها ذهبت إلى القبر لتبكى هناك» (يو١١ : ٣١).

★ وقد بكت مريم المجدلية عند قبر السيد المسيح.

وقيل عنها «أما مريم فكانت واقفة عند القبر خارجاً تبكى» (يو٢٠ : ١١). حتى أن الملاكين قالا لها «يا إمرأة، لماذا تبكين؟». ونفس العبارة قالها لها السيد المسيح (يو٢٠ : ١٣، ١٥).

★ وكانت أرملة نايين تبكى على إبنها الميت. «فلما رآها الرب تحنن عليها، وقال لها لا تبكى» (لو٧ : ١٣).

❊ ❊ ❊

★ بل أن الشعب كله، بكى، لما قال لهم القديس بولس: لا ترون وجهى بعد...

وهكذا يقول سفر أعمال الرسل «وكان بكاء عظيم من

الجميع، ووقعوا على عنق بولس يقبلونه، متوجعين ولاسيما من الكلمة التى قالها إنهم لن يروا وجهه أيضاً» (أع ٢٠ : ٣٧، ٣٨).

❊ ❊ ❊

★ ومن أمثلة البكاء بسبب الفراق:

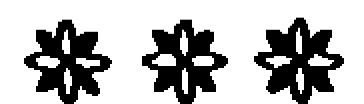
بكاء الشعب بعد موت موسى.

وفى ذلك يقول الكتاب «فبكى بنو اسرائيل موسى فى عربات موآب ثلاثين يوماً. فكملت أيام بكاء مناحة موسى.

❊ ❊ ❊

لكل هذا أنا أتعجب من بعض الآباء الكهنة أو الشمامسة أو الأراخنة، الذين ينتهرون النساء بعنف، حينما يبكون فى جناز!!

هذا البكاء شيء طبيعى، ومشاعر إنسانية من الصعب كتمانها... إنما ينبغى أن يكون فى حدود المعقول، ولا يتحول إلى صراخ مستمر يعطل الصلاة فى الكنيسة.



دموع التأثر

وتبدو هذه واضحة جداً، فى لقاء يوسف الصديق بأخوته وبأبيه، بعد سنوات من الفراق.

★ حينما سمع يوسف اخوته يقولون بعضهم لبعض «حقاً إننا مذنبون إلى أخينا الذى رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا ولم نسمع»... يقول الكتاب عن يوسف «**فتحول عنهم وبكى**» (تك ٤٢ : ٢٤).

★ وأيضاً حينما أعلن نفسه لهم، يقول الكتاب عنه إنه «صرخ: اخرجوا كل إنسان عنى. فلم يقف أحد عنده حين عرّف يوسف اخوته بنفسه. **فاطلق صوته بالبكاء**... وقال يوسف لأخوته: أنا يوسف. أحيّ أبى بعد؟» (تك ٤٥ : ١ - ٣).

★ وكذلك حينما التقى بأخيه بنيامين، يقول الكتاب:

«ثم وقع على عنق بنيامين اخيه وبكى. وبكى بنيامين على عنقه. وقبّل جميع اخوته وبكى عليهم» (تك ٤٥ : ١٤، ١٥).

★ وبنفس التأثر ، وبنفس البكاء ، كان لقاء يوسف الصديق مع أبيه يعقوب . يقول الكتاب فى ذلك «فشدّ يوسف مركبته ، وصعد لاستقبال اسرائيل أبيه ، إلى جاسان» .

«ولما ظهر له، وقع على عنقه، وبكى على عنقه زماناً» (تك٤٦ : ٢٩) .

إنها مشاعر إنسانية حساسة .

★ ولعلنا على نفس القياس الإنسانى .

نذكر لقاء يعقوب بابنة خاله راحيل .

يقول الكتاب فى ذلك «وقبّل يعقوب راحيل، ورفع صوته وبكى . وأخبر يعقوب راحيل أنه أخو أبيها ، وأنه إبن رفقة.» (تك٢٩ : ١١، ١٢) .

لقد تأثر أن الرب قد وفّقه إلى بيت خاله ، وأنه رأى إبنة خاله أمامه بتدبير إلهى . فرفع صوته و بكى ...

إنها مشاعر إنسانية . يمكن بها أن يبكى الإنسان تأثراً فى حالة اللقا ، كما أيضاً فى حالة الفراق ...

دموع المشاركة

وهى دموع لأجل الآخرين، أو مع الآخرين، وعنها يقول الرسول: «.. وبكاء مع الباكين» (رو١٢: ١٥).

ولهذا النوع أيضاً أمثلة عديدة فى الكتاب المقدس، منها قول القديس يوحنا الإنجيلى:

★ «وكان كثيرون من اليهود قد جاءوا إلى مرثا ومريم ليعزوهما عن أخيهما» (يو١١ : ١٩). ولعل أبرع وأعمق ما قيل فى هذه المناسبة: «فلما رآها -أى مريم- تبكى، واليهود الذين جاءوا معها يبكون» ..

★ « بكى يسوع » (يو ١١ : ٣٥).

★ ولعل من الأمثلة الأخرى فى هذا المجال بكاء بنات أورشليم، لما رأين السيد المسيح يساق إلى الصلب، إذ «تبعه جمهور كثير من الشعب، والنساء أيضاً اللواتى كن يلطمن أيضاً و ينحن عليه» (لو٢٣ : ٢٧).

★ من الأمثلة أيضاً بكاء الأمهات على أبنائهن فى أية ضيقة.

فلما فرغ الماء من هاجر وإبنها، طرحت الولد تحت احدى الاشجار، ومضت وجلست مقابله بعيداً... وقالت لا أنظر موت الولد... ورفعت صوتها و بكت (تك ٢٢ : ١٥، ١٦).

دموع الفرح

ومن أمثلة ذلك، بكاء الشعب عند إعادة بناء الهيكل بعد السبى، فى أيام زربابل. و يقول فى ذلك سفر عزرا الكاهن:

«وكثيرون من الكهنة واللاويين ورؤوس الآباء الشيوخ، الذين رأوا البيت الأول، بكوا بصوت عظيم عند تأسيس هذا البيت أمام أعينهم. وكثيرون كانوا يرفعون أصواتهم بالهتاف بفرح. ولم يكن الشعب يميز هتاف الفرح من صوت بكاء الشعب» (عز٣: ١٢، ١٣).

دموع مرفوضة

منها دموع اليأس :

★ ولعل من أمثلتها دموع عيسو التى قال عنها الرسول « لئلا يكون أحد مستبيحاً كعيسو، الذى لأجل أكلة واحدة باع بكوريته. فإنكم تعلمون أنه أيضاً لما أراد أن يرث البركة ، رُفض ، إذ لم يجد للتوبة مكاناً مع أنه طلبها بدموع » (عب ١٢ : ١٦ ، ١٧) .

❊ ❊ ❊

دموع عيسو كانت نوعاً آخر .

★ **كانت دموع العجز والقهر .**

أو كانت دموع الغيظ والحقد على أخيه ، ودموع اليأس من نوال البركة ...

« قال عيسو لأبيه : ألك بركة واحدة فقط يا أبى . باركنى أنا أيضاً يا أبى . ورفع صوته وبكى » (تك ٢٧ : ٣٨) . وقيل إنه لما سمع ببركة يعقوب « صرخ صرخة عظيمة ومرة جداً »(تك ٢٧: ٣٤)

البركة العظمى التى نالها يعقوب ، أن السيد المسيح يأتى من نسله ، وبنسله تتبارك جميع قبائل الأرض (تك ٢٨ : ١٤). ولم يكن ممكناً أن يأتى المسيح من عيسو ويعقوب معاً.

لذلك عبارة «ألك بركة واحدة يا أبى»؟! تعنى من جهة هذا الموضوع جهلاً تاماً بالبركة ونوعها !! وكانت صرخته صرخة غيظ وقهر ، وبكاؤه بكاء عجز ويأس ...

❊ ❊ ❊

ومن أمثلة هذا البكاء اليأس المرفوض أيضاً :

⋆ **بكاء الهالكين فى الأبدية.**

إذ يقول الكتاب عنهم إنهم «يطرحون فى الظلمة الخارجية . هناك يكون البكاء وصرير الأسنان» (متى ٨ : ١٢). ويقول أيضاً عن نهاية العالم «يرسل إبن الإنسان ملائكته ، فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر وفاعلى الإثم ، ويطرحونهم فى أتون النار. **هناك يكون البكاء وصرير الأسنان» (متى ١٣ : ٤١ ، ٤٢)**. ونفس الكلام يتكرر فى (متى ٢٤ : ٥١) ، وفى (لو ١٣ : ٢٨). فما جدوى مثل هذا البكاء ؟!

دموع الشهوة

إنها دموع تضيف خطأ جديداً ، إلى خطيئة الشهوة ، فتصبح خطية مركبة .

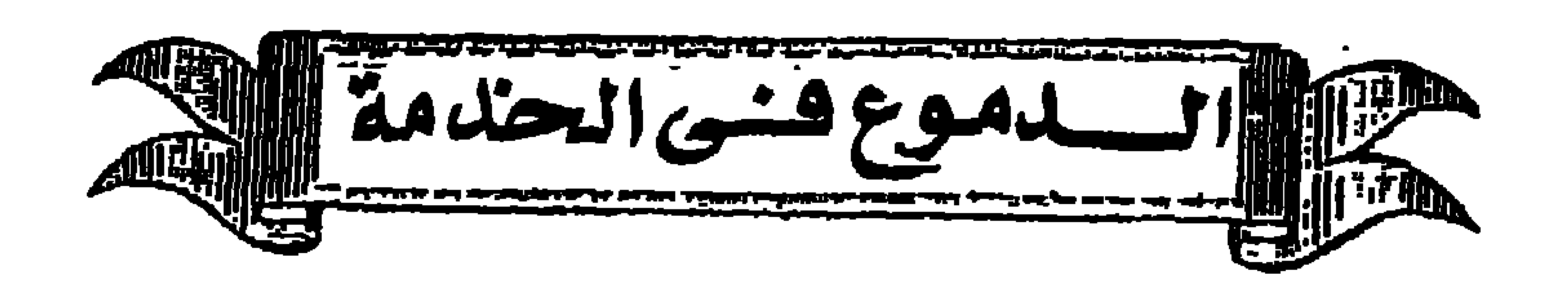
ومن أمثلتها خطأ الشعب ، حينما بكى فى البرية مشتهياً أن يأكل لحماً !!

وفى ذلك يروى سفر العدد :

« واللفيف الذى فى وسطهم اشتهى شهوة . فعاد بنو إسرائيل أيضاً وبكوا . وقالوا من يطعمنا لحماً ؟! قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله فى مصر مجاناً ، والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم .. » (عد ١١ : ٤ ، ٥) . وقال موسى للرب « .. مِن أين لى لحم ، حتى أعطى جميع هذا الشعب ؟! لأنهم يبكونَ علىَّ قائلين : أعطِنا لحمنا لنأكل » (عد ١١ : ١٣) .



الفصل الثانى



- أسباب البكاء فى الخدمة .

لعل من أشهرها دموع ارمياء النبى .

هذه التى سجلت فى سفر كامل ، من الأسفار المقدسة دعى (مراثى أرمياء) .

والذى يشمل صلوات كثيرة ، كلها تنهد وحسرة ، كأن يقول :

« أنظر يارب ماذا صار لنا . وانظر إلى عارنا . قد صار ميراثنا للغرباء ... صرنا بلا أب ، أمهاتنا كأرامل » (مرا ٥ : ١ - ٣) .

ويقول أيضاً « مضى فرح قلبنا . صار رقصنا نوحاً . من أجل هذا حزن قلبنا . من أجل هذه اظلمت عيوننا ... لماذا تنسانا إلى الأبد وتتركنا طول الأيام . أرددنا يارب فنرتد . جدد أيامنا كالقديم . هل كل الرفض رفضتنا ؟! » (مرا ٥ : ١٥ - ٢٢) .

ويشرح فى هذا السفر بكاء مملكة يهوذا فيقول :

« على هذا أنا باكية . عينى عينى تسكب مياهاً . لأنه قد ابتعد عنى المعزى ، رادّ نفسى » (مرا ١ : ٦) « كلّت من الدموع عيناى . غلت أحشائى » (مرا ٢ : ١١) . « سكبت عيناى ينابيع

ماء على سحق بنت شعبى . عينى تسكب ولا تكف بلا انقطاع ، حتى يشرف و ينظر الرب من السماء» (مرا ٢ : ٤٩ ، ٥٠) .

هنا بكاء بلا انقطاع ، وبلا عزاء ، حتى تعبت العين من البكاء ، وشعور بأن الله قد ترك النفس أو نسيها أو رفضها !! وصلاة ... مع صلاة إليه أن يرجع .

❋ ❋ ❋

٢ ـ ولعل من الأمثلة أيضاً بكاء المسبيين عند أنهار بابل . وفى ذلك يقول المرتل :

« على أنهار بابل هناك جلسنا ، فبكينا عندما تذكرنا صهيون . على الصفصاف فى وسطها علقنا قيثاراتنا . لأن هناك سألنا الذين سبونا أقوال التسبيح ... كيف نسبح تسبحة الرب فى أرض غريبة ؟! (مز١٣٦) .

❋ ❋ ❋

٣ ـ ومن الأمثلة أيضاً بكاء نحميا لما سمع أخبار سيئة عن أورشليم .

فقال : فلما سمعت هذا الكلام ، جلست وبكيت ، ونحت أياماً وصمت وصليت أمام إله السماء» (نح ١ : ٤) .

وفى صلاته إعترف بخطاياه وخطايا كل الشعب ، وطلب من الرب رحمة ، مذكراً إياه بمواعيده للآباء .

❊ ❊ ❊

٤ ـ ونفس الوضع بالنسبة إلى عذرا الكاهن ، لما عرف خطايا الشعب . فبكى وأبكى الشعب معه .

وفى ذلك يقول الكتاب « فلما صلى عزرا ، واعترف وهو باك وساقط أمام بيت الله ، اجتمع إليه من إسرائيل جماعة كثيرة جداً من الرجال والنساء والأولاد . لأن الشعب بكى بكاء عظيماً » (عز١٠ : ١) .

❊ ❊ ❊

وفى غير المراثى ، يقول أرمياء النبى فى سفره :

« يا ليت رأسى ماء ، وعينى ينبوع دموع ، فأبكى نهاراً وليلاً قتلى بنت شعبى » (أر٩ : ١) .

❊ ❊ ❊

٥ ـ وقد بكى دانيال النبى أيضاً من جهة سنوات السبى :

وقال فى ذلك « فوجهت وجهى إلى الله السيد طالباً بالصلاة

والتضرعات، بالصوم والمسح والرماد. وصليت إلى الرب إلهى واعترفت وقلت ... أخطأنا وأثمنا، وعملنا الشر، وتمردنا وحدنا عن وصاياك وأحكامك ...» (دا ٩ : ٣ـ ٥).

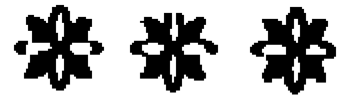
« فى تلك الأيام، أنا دانيال كنت نائحاً ثلاثة أسابيع أيام، لم آكل طعاماً شهياً، ولم يدخل فى فمى لحم ولا خمر، ولم أدّهن، حتى تمت ثلاثة أسابيع أيام» (دا ١٠ : ٢، ٣).

وهنا نرى البكاء مصحوباً بالصلاة والصوم والزهد والاعتراف بالخطايا.

❋ ❋ ❋

٦ ـ من أمثلة البكاء فى الخدمة بكاء ميخا النبى «من أجل إثم يعقوب ومن أجل خطية بيت إسرائيل» (مى ١ : ٥). وفى هذا يقول:

« من أجل ذلك أنوح وأولول. أمشى حافياً وعرياناً. أصنع نحيباً كبنات آوى، ونوحاً كرعال النعام. لأن جراحاتها عديمة الشفاء. لأنها قد أتت إلى يهوذا ...» (مى ١ : ٨، ٩).



٧ ـ ولعل فى قمة البكاء فى الخدمة بكاء ربنا يسوع المسيح على أورشليم:

وفى ذلك يقول الكتاب «وفيما هو يقترب، نظر إلى المدينة وبكى عليها قائلاً «...فإنه ستأتى أيام، ويحيط بك أعداؤك بمترسة... و يهدمونك و بنيك فيك، ولا يتركون فيك حجراً على حجر...» (لو١٩: ٤١- ٤٤).

❊ ❊ ❊

٨ ـ ومن أمثلة البكاء أيضاً بكاء بولس الرسول فى الخدمة:

فإنه يقول لكهنة أفسس «أنتم تعلمون من أول يوم دخلت آسيا، كيف كنت معكم كل الزمان، أخدم الرب بكل تواضع ودموع كثيرة، و بتجارب أصابتنى من مكايد اليهود».

«لذلك اسهروا، متذكرين أنى ثلاث سنين ليلاً ونهاراً، لم أفتر أن أنذر بدموع كل أحد» (أع ٢٠: ١٩، ٣١).

وحتى فى رسائله يقول لأهل كورنثوس «لأنى من حزن كثير وكآبة قلب، كتبت إليكم بدموع كثيرة، لا لكى تحزنوا، بل لكى تعرفوا المحبة التى عندى ولاسيما من نحوكم» (٢كو٢: ٤).

٩ ـ وبالمثل كان تلاميذ القديس بولس فى بكائهم .

فهو يرسل إلى تلميذه تيموثاوس و يقول له « .. أذكرك بلا انقطاع فى طلباتى ليلاً ونهاراً ، مشتاقاً أن أراك ، ذاكراً دموعك » (٢تى ١ : ٤) .

❊ ❊ ❊

أسباب البكاء فى الخدمة

★ القلب الحساس يتأثر من حالة الناس المخدومين .

★ يتأثر إذ يتذكر خطاياهم . كيف ضعفوا ، وكيف جرحوا قلب الله .

★ و يتأثر بنتائج الخطية ، وما جلبته من متاعب ومن و يلات ... أو بما سوف تجلبه من غضب الله .

★ بل قد يتأثر فيما هو يوبخ على الخطايا ، متذكراً ضعفه هو أيضاً ، وأنه ما كان يريد أن يوبخ ، فينذر بدموع ...

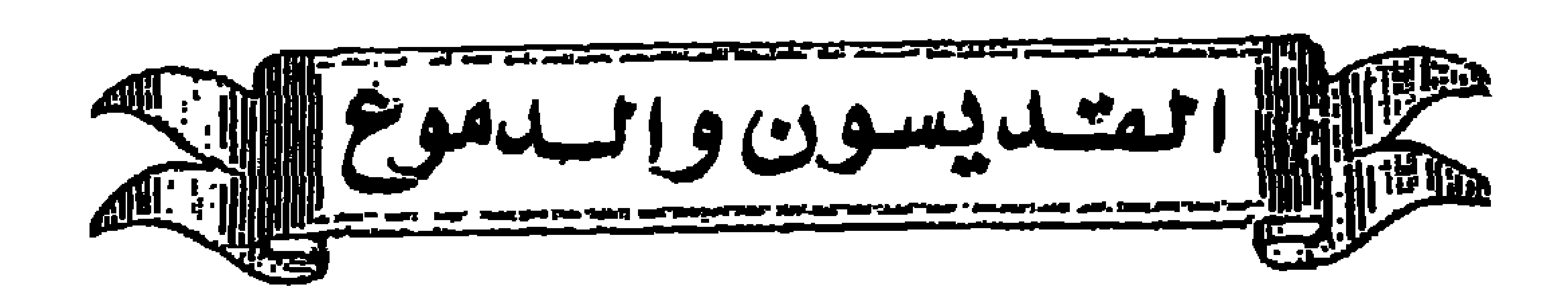
★ وقد يبكى الإنسان فى الخدمة ، طالباً معونة الله ، أو طالباً رحمته ومغفرته . أو يبكى وهو يعرض على الله فى صلاته ، ما وصل إليه الأمر من ضياع .

★ يبكى الإنسان فى الخدمة شاعراً بضعفه، ومتوسلاً إلى الله أن يتدخل، لأن الأمور لا تحلّ بدونه.

★ أو قد يبكى من شدة المشاكل، ومن ضغط العدو عليه، أو من شماته الأعداء وتعييرهم. كما قال داود النبى:

«صارت لى دموعى خبزاً نهاراً وليلاً، إذ قيل لى كل يوم أين إلهك؟! هذه أذكرها فأسكب نفسى علىَّ...» (مز٤٢ : ٣، ٤).

الفصل الثالث



١ ـ القديس أرسانيوس من القديسين الذين اشتهروا كثيراً بالبكاء ...

حتى قيل إن رموش عينيه تساقطت من كثرة البكاء. وتكون اخدودان (حفرتان) على خده من كثرة البكاء.

وكان فى الصيف يبلل الخوص بدموعه. وكان يضع على ركبتيه قطعة من القماش تسقط عليها دموعه.

وفى ساعة موته بكى كثيراً، فقال له تلاميذه «حتى أنت يا أبانا تخاف من هذه الساعة ؟!» فقال لهم: إن فزع هذه الساعة ملازم لى منذ دخلت إلى الرهبنة ...

إن كان القديس العظيم أرسانيوس يبكى هكذا، فماذا نقول نحن عن أنفسنا ؟

وماذا نقول عن فزع تلك الساعة الذى كان يلازمه ؟!

و يلازم مَنْ ؟ يلازم أرسانيوس العظيم مثال الوحدة والصمت فى بستان الرهبان، الذى كان البابا ثاوفيلس يشتهى أن يقابله. وكان القديسون يقولون له « لماذا تهرب منا يا أبتاه ؟! » فيجيب « يعلم الله أننى أحبكم جميعاً. ولكننى لا أستطيع أن أتكلم مع الله والناس فى نفس الوقت » ...

أرسانيوس العظيم الذى كان يقف للصلاة وقت الغروب ، والشمس وراءه ، و يظل واقفاً يصلى حتى تشرق أمامه من جديد ، مقضياً الليل طوله فى الصلاة ...

أرسانيوس المتضع ، معلم أولاد الملوك ، الذى كان يستشير ذلك المصرى الأمى ، و يقول له إنه لم يعرف بعد الفا فيتا التى يتقنها ذلك المصرى . بل يقول أيضاً إنه تعلم اللاتينية واليونانية ، ولكنه لم يعرف بعد كيف ينقى الفول مع رهبان الأسقيط .

أية خطايا فعلها القديس أرسانيوس حتى كان يبكى و يفزع من تلك الساعة ؟!

هل بعد كل هذا نسرع نحن إلى العزاء والفرح من مبدأ الطريق ، ونتباهى بأن خطايانا قد غفرت ؟! ونبحث عن المواهب ؟! ونطالب بنصيبنا فى الميراث ؟! وننسى أنفسنا !!

إن الدموع تحتاج إلى تواضع قلب ، و يناسبها جداً أن يعرف الإنسان ذاته ، ويحاسب نفسه و يلومها .

قيل إنه لما حانت وفاة القديس البابا ثاوفيلس ، قال :

« طوباك يا أنبا أرسانى ، لأنك بكيت طول حياتك من أجل هذه الساعة » .

❊ ❊ ❊

٢ ـ وعندما سمع أنبا بيمن أن القديس أرسانيوس قد تنيح ، قال : طوباك يا أنبا أرسانيوس لأنك بكيت على نفسك فى هذا العالم ... » .

« لأن الذى لا يبكى على نفسه فى هذا العالم ، لابد سيبكى إلى الأ بد فى العالم الآخر. أما بكاؤه ههنا فباختياره . ولكن هناك فبسبب ما يناله من عقاب » .

« ولكن من المحال أن يفلت إنسان من البكاء هنا وهناك » .

صدق داود النبى الذى اختبر الدموع جيداً فى حياته فقال :

« الذين يزرعون بالدموع ، يحصدون بالابتهاج » (مز ١٤٥) .

❊ ❊ ❊

٣ ـ من أشهر الأمثلة أيضاً فى الدموع القديس ايسيذيروس قس القلالى.

وكان تحت إشرافه ثلاثة آلاف راهباً. وكان يرى رؤى. وكانت الشياطين تخافه وتهرب منه، وبسهولة كان يخرج الشياطين...

وفى إحدى المرات ظهر له الشيطان وقال له «أما يكفيك أننا لا نستطيع أن نمر على قلايتك، ولا على القلاية التى إلى جوار قلايتك. وأخ واحد كان لنا فى البرية، جعلته يعتدى علينا بصلاته فى النهار والليل»...

ومع ذلك كان القديس ايسيذيروس يبكى بدموع غزيرة.

وكان يجهش بالبكاء بصوت عالٍ، لدرجة أن تلميذه فى الغرفة المجاورة سمعه يبكى، فدخل عليه وقال له «لماذا تبكى يا أبى؟» فأجابه القديس «إننى يا ابنى ابكى على خطاياى»... فقال له التلميذ «حتى أنت يا أبانا، لك خطايا تبكى عليها؟!» فأجابه:

«صدقنى يا ابنى، لو كشف الله لى كل خطاياى، ما كان يكفى لو اجتمع ثلاثة أو اربعة معى للبكاء عليها»!

هؤلاء القديسون كانت لهم حساسية شديدة من جهة أن الخطية خاطئة جداً، وأنها تجرح قلب الله المحب.

ما كانوا يفكرون فى عقوبة الخطية، إنما كانوا يفكرون فى مشاعر الله، وأنهم لم يرضوه بعد، على الرغم من السمو العظيم الذى وصلوا إليه فى الحياة الروحية. و يرون أن هذا (التقصير) إذا ما قيس بالكمال الذى يتطلعون إليه، هو الخطية التى يبكون عليها بدموع ...

***

٤ ـ ومن القديسين الذين بكوا بدموعهم القديس باخوميوس أب الشركة.

حتى أن تلاميذه ـ بعد صلاته ـ وجدوا الأرض التى كان واقفاً عليها مبللة بالدموع.

***

٥ ـ وكان القديس مقاريوس الكبير مشهوراً أيضاً بالدموع.

ولما قربت أيام انتقاله، سأله الآباء أن يأتى إليهم ليتباركوا منه قبل رحيله، بدلاً من أن ينتقل كل سكان الجبل إليه. فلما جاءهم، تجمعوا حوله، وطلبوا منه كلمة منفعة فبكى القديس وقال لهم:

«فلنبكِ يا اخوتى، ولتفض عيوننا بالدموع، قبل أن نذهب إلى المكان الذى فيه تحرق دموعنا أجسادنا» ...

فبكوا كلهم وسقطوا على وجوههم قائلين «صلّ عنّا أيها الأب» ...

* * *

٦ ـ ومن الذين اشتهروا بالدموع :

القديس بفنتيوس تلميذ وخليفة القديس مكاريوس الكبير:

وكان منذ شبابه المبكر نامياً فى حياة القداسة، وكان كل الآباء معجبين به ويحبونه، حتى أنه أصبح رئيس الأسقيط بعد القديس مقاريوس.

حكى هذا القديس لأولاده فقال :

«حينما كنت صبياً، وجدت خيارة وقعت على الأرض من الجمالين، فأخذتها وأكلتها. **وكلما تذكرت هذه القصة أبكى» ...**

حدث هذا وهو صغير، وترهب، ونما فى النعمة، وصار رئيساً

للأسقيط، وكان يخرج الشياطين، وكان البابا ثاوفيلس يشتهى سماع كلمة منفعة من فمه... ومع ذلك كلما يذكر تلك القصة يبكى...

ليس البكاء هنا لكى يغفر له الرب خطية. فإن داود النبى قد بكى بعد أن غفر له الرب خطيته.

بعد أن قال له ناثان النبى «الرب نقل عنك خطيتك. لا تموت» (٢صم ١٢ : ١٣).

إن الإنسان الحساس لا يبكى فقط من أجل طلب المغفرة. إنما يبكى حزناً على نفسه كيف وصل إلى مستوى السقوط، وكيف أحزن الروح القدس الساكن فيه، وبكل جرأة كسر وصايا الله المحب، الذى خلقه على صورته ومثاله، ففقد هذه الصورة بخطاياه.

❋ ❋ ❋

سئل أحد القديسين عن الأمور التى يمكنها أن تبكيه.

فقال تفزعنى ثلاثة أمور:

١ ـ ساعة خروج روحى من جسدى.

٢ ـ ساعة وقوفى أمام الديان العادل .

٣ ـ ولحظة صدور الحكم علىّ .

هذه الأمور الثلاثة كانت باستمرار تشغل بال القديسين ، وتكون مصدراً للدموع بالنسبة لهم .

إنها أمور تتعلق بحرص الإنسان على أبديته ...

وتذكار الموت إذن يصاحبه دائماً تذكار الدينونة .

وتذكار الدينونة يجلب الدموع ، وبخاصة إن كان يصحبه تذكر الخطايا والبكاء عليها .

ما أصعب عبارة « يجازى كل واحد بحسب أعماله » ... وما أصعب أيضاً عبارة « وأعمالهم تتبعهم » .

ترى ما هو نوع هذه الأعمال التى تتبعنا ! وهل تستحق الدموع ؟!

ومع تذكار الدينونة ، يتذكر الإنسان أيضاً عدل الله . ولهذا تضع الكنيسة أمامنا هذه الحقيقة كل يوم فى صلاة النوم ، حيث يقول المصلى « هوذا أنا عتيد أن أقف أمام الديان العادل مرعوب ومرتعد من أجلى كثرة ذنوبى ... » .

وفى تذكار الدينونة والخطية ، نتذكر أيضاً قول الرسول :

«مخيف هو الوقوع فى يدى الله الحى» (عب ١٠ : ٣١).

إن الخوف أيضاً سبب جوهرى من أسباب الدموع .

ونقصد فى مقالنا هذا الخوف لأسباب روحية ، وليس الخوف بسبب أمور عالمية كما يحدث للبعض ...

* * *

إبك يا أخى ههنا ، لكى يمسح الرب كل دمعة من عينيك حينما تلقاه .

ولكنك إن لم تبكِ ههنا ، فما الذى سيمسحه المسيح من عينيك فى العالم الآخر؟!

إن الذى لا يبكى ههنا ، تتفجر من عينيه ينابيع دموع اليأس التى لا يمسحها أحد هى دموع لا تستطيع أن تطفىء النار المحيطة به .

ما أكثر ما قاله الآباء القديسون عن البكاء والدموع.

* سأل أخ **القديس الأنبا بيمن** قائلاً «ماذا افعل من جهة خطاياى؟» فأجابه:

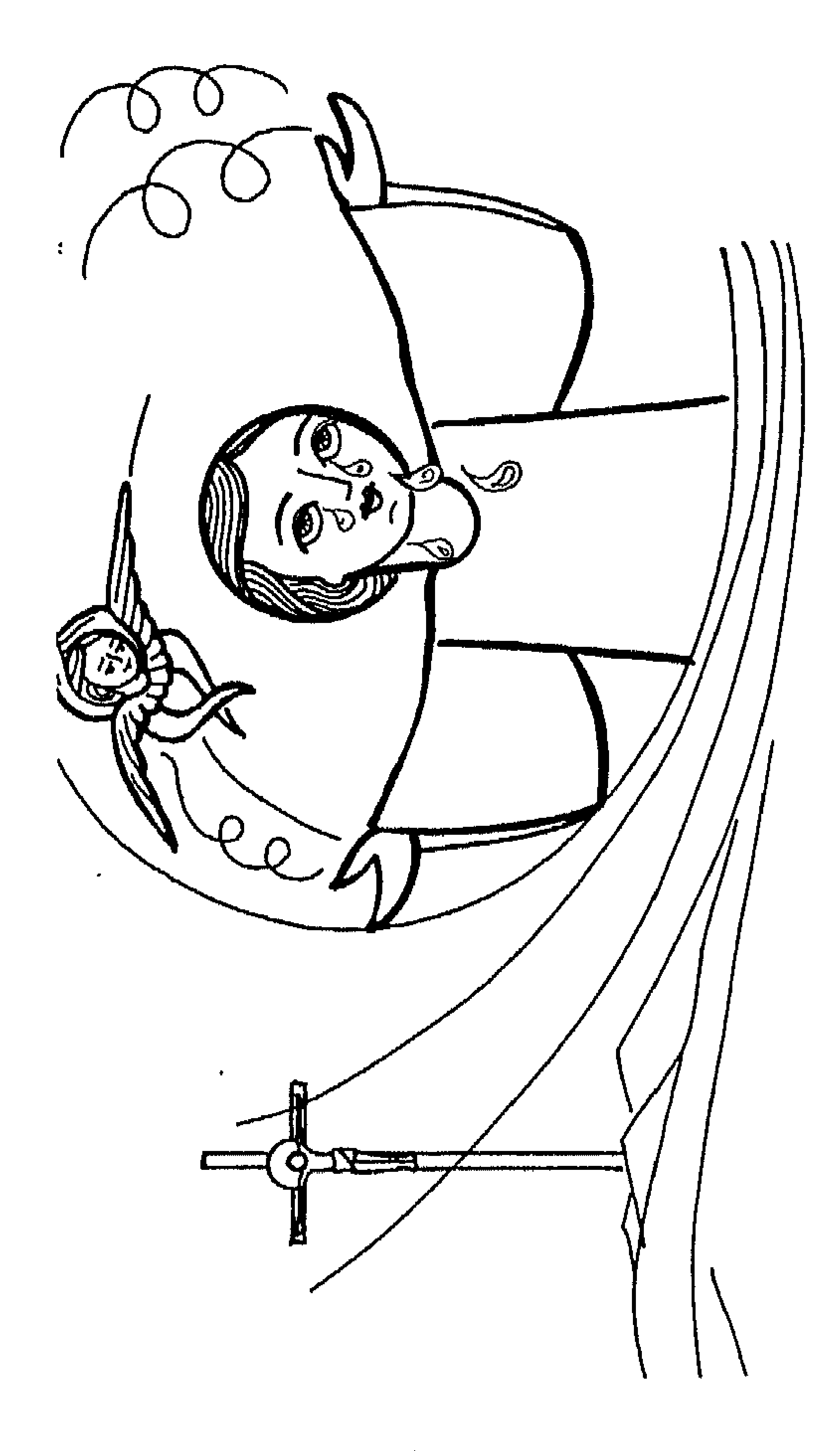
«إن الذى يريد أن تُمحى خطاياه، يستطيع هذا بالبكاء. لأن البكاء هو الطريق الذى علمنا إياه الكتاب. والآباء أيضاً كانوا يبكون باستمرار. ولا يوجد طريق آخر غير هذا».

* سأل الأنبا نوح **القديس مقاريوس** «قل لى كلمة منفعة». فقال له الشيخ «اهرب من الناس». فسأله الأنبا نوح «ماذا تعنى يا ابى بأن أهرب من الناس؟». فقال له الشيخ «اجلس فى قلايتك وابكِ على خطاياك».

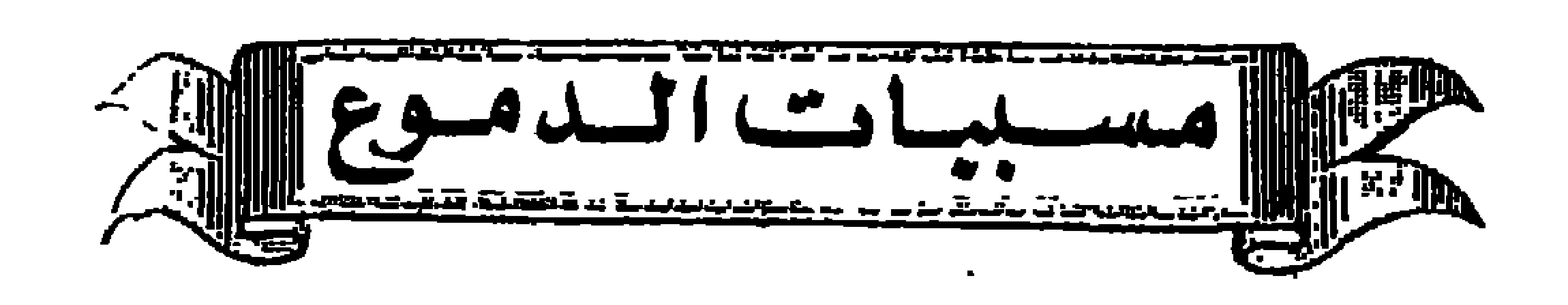
* **وقال الشيخ الروحانى:**

«طوبى للذين احترقت خدودهم بدموع محبتك. فإن هذه الدموع تروى الأرض الناطقة التى احترقت بالنار، فتعطى ثمار الروح».

هذه الدموع التى يجب أن يتصف بها كل إنسان فى حياته: لها عوامل تقويها، وعوامل تضعفها. **فما هى هذه وتلك؟**



الفصل الرابع



- الرقة والحساسية .
- الشعور بتفاهة العالم .
- تذكر الخطايا .
- التجارب والضيقات .
- تذكار الموت .
- الفرح والتأثر .
- الصلاة .
- الشعور بالعجز .
- الشعور بالتخلى .
- الشماتة .

هناك دوافع كثيرة تسبب الدموع ، بعضها داخلى ، فى القلب والفكر والشعور، بل وفى طبع الإنسان ذاته ، و بعضها عوامل خارجية تختص بالظروف والملابسات التى تحيط بهذا الباكى . وسنحاول أن نتكلم عن هذه وتلك بقدر الإمكان . ونذكر حالياً منها :

الرقة والحساسية

الإنسان الرقيق الحساس ، دموعه سهلة وقريبة ..

أما الشخص القاسى ، الشديد القلب ، فدموعه عزيزة ، ومن الصعب أن يبكى . وإن بكى هذا الشخص فى يوم ما ، فلابد أن يكون السبب الخارجى قوياً جداً وخطيراً ، بحيث لم يستطع طبع هذا الإنسان أن يقاومه ...

لذلك نجد أن الدموع عند المرأة قريبة جداً أكثر مما عند الرجل ...

لأن المرأة أكثر رقة من الرجل بطبيعتها . ولكن إذا بكى الرجل ، تكون دموعه أكثر عمقاً وأشد تأثيراً . كذلك إن بكى الطفل أو الصبى ،

يكون هذا شيئاً طبيعياً ، شيئاً عادياً فى طبعه . أما إذا بكى رجل كبير السن ، فإن دموعه تكون أغلى وأوقع ، ولها أسباب أشد وأعمق ، بحيث لم يستطع هذا الكبير أن يضبط نفسه ...

الإنسان الرقيق يتأثر بأقل شيء ، وتسيل دموعه بسرعة وتلقائية ...

وهى دموع طبيعية لا تصنع فيها ، لأن مشاعره الحساسة تتأثر بسرعة ، سواء بما يخصه أو يخص غيره ... وهناك أمور عديدة تهز القلب ، بالنسبة إلى أصحاب المشاعر الرقيقة ، بينما لا تؤثر فى غيرهم من أصحاب القلوب الجامدة أو القاسية ، أو من الذين لهم قوة السيطرة على مشاعرهم ، أو الحرص على إخفائها ...

الدموع والقسوة لا يتفقان ...

إلا إذا صدمت القاسى بأسباب أقوى من قسوته ، فهزته من الداخل وأنهار أمامها ... ! تماماً كما حدث لعيسو ، حينما صُدم بضياع البركة منه بحيلة من أخيه ... ولم يحتمل الصدمة فصرخ باكياً (تك ٢٧ : ٣٤ ، ٣٨) .

على أن بكاء القاسى شيء مؤقت .

وهو أيضاً شيء غير طبيعى ...

أما بكاء الإنسان الرقيق فهو أمر طبيعي، ومتكرر، ومحتمل الحدوث فى أى وقت ، لسبب داخلى أو خارجي ...

لهذا ، فإن الذى يحب الدموع ، و يرغب فى اقتنائها ، عليه أن يقتنى رقة الطبع أولاً ...

إن لم يكن رقيق الأحاسيس بطبيعته ، فعليه أن يقتنى هذه الرقة ، و يبحث عن أسبابها ، و يدرب نفسه عليها ...

وطبيعى كلما اقترب الإنسان إلى الله ، كلما رقت مشاعره .. وكلما عاشر رقيقى الطبع ، كلما تعلّم منهم رقتهم ... كذلك عليه أن يبتعد عن الأسباب التى تؤدى إلى شدة الطبع وقساوة القلب ، وهى كثيرة

الشعور بتفاهة العالم

الذى يعيش فى ملاذ العالم وملاهيه ، من أين تأتيه موهبة البكاء ؟!

بل العالم يشغله ويلهيه ــ

حينما كان سليمان الحكيم متمتعاً بأبهة الملك وفخامته ، ومهما

اشتهته عيناه لم يمنعه عنهما (جا ٢ : ١٠) .. فى ذلك الحين ما كان يبكى ... ولكنه لما شعر بتفاهة العالم ، وبأن كل ما فيه هو باطل الأ باطيل وقبض الريح ، حينئذ استطاع أن يقول :

« بكآبة الوجه يصلح القلب » ...

« الذهاب إلى بيت النوح ، خير من الذهاب إلى بيت الوليمة ، لأن ذاك نهاية كل إنسان ، والحى يضعه فى قلبه » « قلب الحكماء فى بيت النوح ، وقلب الجهال فى بيت الفرح » (جا ٧ : ٢-٤) .

عندما يدرك الإنسان الأمور على حقيقتها ، و يشعر بتفاهة العالم ، ولا تلذ له كل مغرياته ، حينئذ يشعر بفراغ من جهة العالم ... وتتغير مشاعره ...

يشتاق إلى عالم آخر ، وإذ يجد العالم الآخر بعيداً عنه ، يبكى اشتياقاً إليه وحنيناً ...

يشعر بغربة فى هذا العالم الحاضر ، وتبكيه مشاعر الغربة ... متيقناً أن فرحه الحقيقى ليس هو ههنا . لأنه غريب على الأرض ، نزيل مثل جميع آبائه ، يتطلع إلى وطن سماوى ، إلى المدينة التى لها الأساسات ... (عب ١١ : ١٦ ، ١٠) .

لذلك صدق حسّ المرتل، حينما دعا هذه الدنيا « وادى البكاء » .

وقال عن حياتنا فيها « عابرين فى وادى البكاء » (مز ٨٤ : ٦) .

كان القديسون يبكون ، إذ كانوا يشعرون بغربتهم فى العالم ، و يشتاقون إلى عالم أفضل ، زاهدين فى كل ما ههنا . لا تشبعهم افراح هذه الدنيا ، ولا ترضيهم ...

حقاً إن الإنسان يدرك الدموع الروحية ، حينما يصل إلى حياة التجرد ...

وحينما يصل إلى التجرد ، أو على الأقل إلى محبة التجرد ، حينئذ يبكى على الأ يام التى قضاها متعلقاً بتفاهات العالم ومنشغلاً بها ، و يقول للرب كما قال القديس أوغسطينوس « لقد تأخرت كثيراً فى حبك ، أيها الجمال الفائق الوصف » ...

وهنا يتذكر خطاياه ، و يصيرتذ كرها ينبوعاً لدموع كثيرة ...

٣ـ تذكر الخطايا

إن بطرس الرسول لم يكن يدرك تماماً حقيقة ما يفعل ، وهو يسب ويجدف و ينكر المسيح .. ! ولكنه لما صاح الديك وأحسّ بعمق خطيئته ، « خرج خارجاً ، و بكى بكاءً مراً » (مت ٢٦ : ٧٥) .

وهكذا أيضاً فعلت المرأة الخاطئة ، التي بلّت قدمي الرب بدموعها ، ومسحتهما بشعر رأسها (لو٧: ٣٨) . و بالمثل بكى داود النبى ، لما اظهر له ناثان النبى عمق خطاياه (٢صم ١٢ : ٧) .

إن نسيان الخطايا يجفف القلب ، ويجفف العينين . لذلك حسناً قال داود النبى :

خطيتى أمامى فى كل حين (مز ٥٠) . فليتك تفعل هذا ، وتجعل خطاياك قدام عينيك ، تذل بها نفسك وتوبخها ، وتبكى على هذه الخطايا النهار والليل . فإن البكاء على الخطايا يغسل القلب ، ويطهر الروح ، و يعطى يقظة للضمير ، فيمنع الإنسان من العودة إلى الخطيئة مرة أخرى ، و يعلّمه الحرص والتدقيق .

ولهذا فإن نصيحة تتكرر فى بستان الرهبان ، يقولها الآباء لمن يطلب كلمة منفعة :

«اجلس فى قلايتك ، وابكِ على خطاياك» .

وغفران الله للخطية ، لا يمنع بكاء الخاطىء عليها . إنه لا يبكى خوفاً من العقوبة ... إنما يبكى لأنه أحزن قلب الله بخطاياه ، أحزن روح الله الذى فى داخله ، وأبعد عنه الملائكة المحيطين به ، وكشف نفسه رديئة أمام أرواح المنتقلين ... و يبكى أيضاً لأنه بخطيئته قد فقد صورته الإلهية ، وسقط وتدنس ...

يبكى متألماً ، كيف ضعفت إرادته هكذا ، وتدنست روحه ؟!

و يشعر بالخجل أمام نفسه ، و بالخزى أيضاً . كما قال داود النبى فى المزمور «خزى وجهى قد غطانى» (مز٤٤ : ١٥) . وكما قال دانيال النبى وهو يعترف بخطايا الشعب «يا سيد ، لنا خزى الوجوه ، لملوكنا لرؤسائنا ولآبائنا ، لأننا أخطأنا إليك» (دا ٩ : ٨ ، ٧) .

وهكذا كان القديسون يبكون أيضاً من أجل خطايا الشعب .

يبكون حزناً على الذين يسقطون والذين يهلكون ، كما ناح صموئيل على شاول الملك (١صم ١٥ : ٣٥) . و يبكون طالبين المغفرة للناس ،

وطالبين لهم نعمة للتوبة ، كما بكى عزرا الكاهن بسبب خطايا الشعب ، ومزق ثيابه ونتف شعر رأسه (عز ٩ : ٣) . وصلى واعترف وهو باك وساقط أمام بيت الله » (عز ١٠ : ١) . وقال « اللهم أنى أخجل وأخزى أن أرفع يا الهى وجهى نحوك ، لأن ذنوبنا قد كثرت فوق رؤوسنا ، وآثامنا تعاظمت إلى السماء » (عز ٩ : ٦) .

ونفس الوضع حدث مع نحيما ، حينما اعترف بخطايا الشعب وقال « إنى أنا وبيت أبى قد أخطأنا وأفسدنا أمامك » (نح ١ : ٦ ، ٧) .

ومن أجل الشعب أيضاً بكى ارمياء النبى :

وتسجلت دموعه ومراثيه فى سفر كامل فى الكتاب نقرؤه باستمرار فى الساعة الثانية عشرة من يوم الجمعة العظيمة ...

إن كان الناس لا يبكون على خطاياهم ، فمن واجب القديسين أن يبكوا من أجلهم ، طالبين لهم الرحمة والمغفرة ، وطالبين لهم التوبة ...

لقد بكى السيد المسيح على أورشليم لو١٩ : ٤١) ، إذ كان يبصر هلاكها أمام عينيه ... ونحن فى كل يوم نبصر الذين يسقطون و يهلكون ، والذين ينحرفون و يبتعدون . أفلا يستحقون منا البكاء ؟!
إن نحميا ، لما سمع أن سور أورشليم منهدم ، وأبوابها محروقة بالنار ،

يقول «فلما سمعت هذا الكلام، جلست و بكيت، ونحت أياماً وصمت وصليت ...» (نح ١ : ٣، ٤). و بكى نحميا أمام الله، معترفاً بخطايا الشعب ... وقال للرب فى صلاته «إنى أنا و بيت أبى قد أخطأنا. لقد أفسدنا أمامك، ولم نحفظ الوصايا والفرائض والأحكام التى أمرت بها موسى عبدك ...».

والسيد المسيح لما بكت عليه بنات أورشليم، قال لهن «لا تبكين علىَّ، بل أبكين على أنفسكن وعلى أولادكن» (لو٢٣ : ٢٨)... حقاً، كانت تلك النفوس تحتاج إلى البكاء، تلك النفوس الخاطئة التى بكى المسيح من أجلها ...

حينما نبكى على خطايانا، نتذكر أيضاً محبة الله التى صبرت علينا كل هذا الزمان!

نتذكر احتمال الله لنا، وطول أناته، ونحن مستمرون فى الخطأ زماناً هذه مدته... وتذكرنا لمحبة الله الصابرة والمحتملة، تعطينا سبباً جديداً للبكاء تأثراً بمعاملته المترفقة ...

وحينما تبكى النفس التائبة أمامه، يشفق الرب، و يُغلب من تحننه، و يقول لتلك النفس «حوّلى عينيك عنى، فإنهما قد غلبتانى» (نش ٦ : ٥).

إن داود النبى من أبرز الأمثلة للبكاء على الخطايا .

يكفى قوله « فى كل ليلة أعوّم سريرى . بدموعى أبل فراشى » (مز٦) . عبارة « كل ليلة » تعبر عن الوقت واستمرار البكاء . وعبارة « أعوم سريرى » تدل على كمية الدموع المنسكبة .. ! تصوروا هذا الملك العظيم ، يرجع إلى قصره ليلاً ، فيخلع عنه تاجه وملابسه الملكية ، و يركع أمام الله باكياً ، ليبلل فراشه بالدموع . وحتى إذا نام ، ينام على سرير غارق فى الدموع ... على الرغم من كل مظاهر العظمة والأبهة المحيطة . و يقول أيضاً :

« صارت دموعى لى خبزاً نهاراً وليلاً » (مز٤٢ : ٣) .

وأيضاً يقول فى تذلله و بكائه « أكلت الرماد مثل الخبز ، ومزجت شرابى بالدموع » (مز١٠٢ : ٩) ... أى أنه حينما يشرب ، تتساقط دموعه فتختلط بالماء الذى يشربه ، فيشربها معه !

وكان داود يحدث الله عن هذه الدموع ، فيقول له « أنصت إلى دموعى ، ولا تسكت عنى ، لأنى غريب عندك » (مز٣٩ : ١٢) ، « اجعل دموعى فى زق عندك » (مز٥٦ : ٨) .

إن الذين يسرعون إلى الفرح حال توبتهم ، يفقدون بركة الانسحاق وتعزية الدموع .

وقد يرجعون إلى الخطية مرة أخرى ، لأن التوبة لم تستوف مطالبا من الانسحاق ومن البكاء ، وهذا الفرح السريع عطل القلب عن الشعور بمرارة الخطية وفداحتها ، فعبر عليها كما لو كانت أمراً بسيطاً ...

حينما يبدأ التائب فى البكاء والتذلل أمام الله ، يحاربه الشيطان بعبارة :

« امنحنى بهجة خلاصك » (مز ٥٠) .

والملاحظ أن داود النبى قدمها كطلبه ، ولم يعرفها كحالة ... ولاشك أنه لا يتمتع ببهجة الخلاص ، إلا الذى أدرك مرارة الخطية ، و بكى بكاءً مراً كما فعل القديس بطرس الرسول ...

لقد كان خروف الفصح يمثل الخلاص من عبودية فرعون ، و يرمز إلى ذبيحة المسيح (١ كو ٥ : ٧) . ومع ذلك كان أمر الرب أن يأكلوه على أعشاب مرة (خر ١٢ : ٨) متذكرين خطاياهم التى جلبت لهم العبودية . البكاء إذن هو الوسيلة إلى التعزية ، كما قال الكتاب :

« الذين يزرعون بالدموع ، يحصدون بالابتهاج » (مز ١٢٦ : ٥) .

بهذه الدموع التى تسكبها أمام الله ، تحصل على بهجة خلاصه .

التجارب والضيقات

التجارب والضيقات والآلام والأمراض والكوارث تجلب الدموع أحياناً .

وبخاصة لو شعر الإنسان بالتخلى أو أنها عقوبة بسبب خطاياه .

وهنا يدخل فى البكاء عامل روحى ، سببه شعور الإنسان أن النعمة قد فارقته ، أو أن الله بدأ يسلمه إلى أيدى أعدائه .. فيحزن لذلك ويبكى .

فأحياناً يبكى توبة وندماً .

وأحياناً يبكى فى عتاب مع الله .

ولعل هذا ما فعله داود فى تجاربه وضيقاته ، حينما قال فى المزمور .

« لماذا يارب تقف بعيداً ؟ لماذا تختفى فى أزمنة الضيق ؟ » (مز ١٠ : ١) .

والرب يسمح أحياناً بالتجارب ، لا تخلياً منه ، وإنما لفائدتها الروحية .

لأن الإنسان فى وقت المذلة تجلب له انسحاق القلب ، وتواضع الروح ، وفيضاً من الدموع يشعره بضعفه ، و يزيل منه كل أسباب ومظاهر الكبرياء .

وقد يرى الله أن دموع أحد أبنائه قد جفت بلذة العالم ...

فيسمح له بالتجارب والضيقات ، لكى تعصر عينيه بعد أن تعصر قلبه ...

والله لا يمنع هذه التجارب حتى عن قديسيه . وفى هذا يقول المزمور : « كثيرة هى أحزان « بلايا » الصديقين ، ومن جميعها ينجيهم الرب » (مز ٣٤ : ١٩) .

إنه يسمح بهذه البلايا أن تصيب قديسيه . فإن أتت بنتائجها الروحية ، حينئذ ينجيهم منها .

وهنا أحب أن أفرق بين نوعين من التجارب ونوعين من الدموع ...

نوع علمانى والآخر روحى .

هناك تجارب مادية أو عالمية ، تصيب الإنسان، فى ماله أو جاهه ، أو مركزه ، فيبكى حزناً على لذة ضائعه من ملاذ هذه الدنيا ... وربما فى بكائه يتذمر و يتضجر، حتى على الله نفسه !! كأن الله كان سبباً فى بلاياه !

مثل هذا الإنسان دموعه خطية .

ولسنا عن هذا النوع نتحدث .

إن دموعه تدل على محبته للعالم والأشياء التى فى العالم ، التى تبيد وشهوتها معها (١يو٢ : ١٦ ، ١٧) .

والإنسان الزاهد فى الدنيا وملاذها ، لا يتأثر بهذه الأمور، بل يقول « الرب أعطى، الرب أخذ، فليكن إسم الرب مباركاً » (أى ١ : ٢١) .

وإنسان آخر كلما تضغط عليه التجارب ، يشعر بتفاهة الدنيا ، و يشتاق إلى عالم أفضل ، هذا إنسان روحى .

إن بكى ، يبكى خوفاً من تخلى النعمة عنه . أو إنه يكون قد أحزن الرب ، فتركه إلى هموم العالم .

هذا الإنسان بكاؤه روحى ممزوج بالتوبة وتواضع القلب ،

وممزوج بالاعتراف أيضاً. وقد يقول فى قلبه : إن ما حدث لى، أقل بكثير مما أستحقه بسبب خطاياى. وخير لى أن أستوفى البلايا على الأرض كلعازر المسكين (لو١٦ : ٢٥).

أو يقول مع المرتل فى المزمور:

« خير لى يارب أنك أذللتنى، حتى أتعلم حقوقك» (مز١١٩ : ٧١).

إن مثل هذه الدموع تجلب للقلب عزاء، لأن الله يكون قد قبلها كرائحة سرورقدامه، وقبل دوافعها الروحية أيضاً ...

وقد تكون التجارب من ضغط حروب الشياطين، و يبكى الإنسان شاعراً بضعفه، طالباً من الرب معونة.

فشعور الإنسان بأنه أضعف من أن يقاتل هذه القوى الروحية، قد يجلب له دموعاً، خوفاً من أن يسقط ...

أو أن أفكار العدو تكون قد نجست إنسان الله، فيبكى حرصاً على نقاوة قلبه وفكره وشعوره، ويجاهد طالباً نعمة الله معه.

وعن هذه الحرب الروحية، أرسل بولس الرسول مو بخاً العبرانيين بقوله :

«لم تقاوموا بعد حتى الدم مجاهدين ضد الخطية» (عب ١٢ : ٤).

هذا الجهاد حتى الدم، تدخل الدموع عنصراً فيه. حيث يخاطب الرب قائلاً «أنصت إلى دموعي» (مز ١١٩) ولا تتخلَ عني، لأني بدونك لا استطيع أن أفعل شيئاً (يو ١٥ : ٥).

هناك سبب آخر للدموع وهو:

تذكار الموت

المنشغل بالحياة الحاضرة لا يبكي.

بل قد يقول مثل الغني الغبي: «أهدم مخازني وأبني أعظم منها، وأجمع هناك جميع غلا تي وخيراتي. وأقول لنفسي: يا نفسي لك خيرات كثيرة موضوعة لسنين عديدة فاستريحي وكلي واشربي وافرحي» (لو١٢ : ١٨، ١٩).

إن متع الدنيا تلهيه عن أبديته، فلا يبكي، بل يفرح ويتمتع !!

أما الإنسان الروحى ، فإذ يضع أبديته أمامه فى كل حين ، و يدرك أن يوم الرب قد يأتى كلص (رؤ١٦ : ١٥) ، تراه يستعد لهذه الأ بدية ، وما تستلزمه من حياة التوبة والجهاد والكمال المطلوب والقداسة ...

وإذ يذكر الموت يبكى ... لأنه ليس مستعداً له ...

ولا يزال أمامه جهاد طو يل ، لم يسر فيه خطوة واحدة ...

إن أرسانيوس العظيم ، رجل الوحدة والصمت والصلاة ، كان يبكى لتذكار الموت ...

وإن كان الإنسان الروحى يبكى لتذكار الموت بصفة عامة ...

فكم يكون بكاؤه إن كان الموت متوقعاً لسبب واضح يوحى به !

إن البكاء وحده ليس هو كل شىء . وليس هوبسبب مفارقة الأهل والأحباب أو مفارقة ملاذ الدنيا ، كما يفعل أهل العالم ومحبوه !

إنما هو بكاء مصحوب باستعداد روحى ، استعداد لمقابلة الله .

وهكذا كان القديسون ينصحون بتذكار الموت ، وبزيارة المقابر.

إن القديس الأنبا أنطونيوس تأثر روحياً بوفاة أبيه بالجسد ، وزهد الدنيا وخرج منها بإرادته ، قبل أن يخرجوه كارهاً .

وموكب موت شاهده الأنبا بولا ترك تأثيره أيضاً ، فترك العالم والمال والقضايا ، وصار أول السوّاح .

وكان القديس أبا مقار الكبير يضع أحياناً جمجمة تحت رأسه تذكره بالموت . وأبا مقار الاسكندرانى زار إحدى المقابر . والقديس أنطونيوس الكبير فى بدء حياته الرهبانية سكن فى مقبرة ...

تذكار الموت له فوائده العديدة ، الدموع واحدة منها ...

تذكار الموت يوقف الإنسان أمام حقيقة نفسه ، وأنه مجرد بخار يظهر قليلاً ثم يضمحل (يع ٤ : ١٤) ، وأنه « كزهر الحقل كذلك يزهر . لأن ريحاً تعبر عليه فلا يكون ، ولا يعرفه موضعه بعد » (مز١٠٣ : ١٥ ، ١٦) .

ولذلك حسناً قال داود النبى :

« عرفنى يارب نهايتى ، ومقدار أيامى كم هى ، لأعلم كيف أنا زائل » (مز ٣٩ : ٤) .

وقال أيضاً « إنما نفخة كل إنسان قد جُعل . إنما كخيال

يتمشى الإنسان (مز ٣٩ : ٥ ، ٦) .

بتذكار الموت ، يتضع الإنسان و ينسحق .

والإتضاع والإنسحاق يجلبان الدموع .

الفرح والتأثر

كما أن الحزن الشديد يجلب الدموع ، كذلك يسببها الفرح العميق أيضاً .

إن يوسف الصديق وأباه يعقوب لم يضبطا أنفسهما من البكاء الشديد عند لقائهما بعد غيبة طويلة .

التأثر الشديد داخل القلب ، فاض دمعاً . و يقول الكتاب إن يوسف لما رأى أباه « وقع على عنقه ، وبكى على عنقه زماناً » (تك ٤٦ : ٢٩) .

ونفس التأثر والبكاء ، حينما عرّف يوسف أخوته بنفسه .

وإن كانت المشاعر وقتذاك تختلف عن مشاعره حين لقائه بأبيه .

و يقول الكتاب فى ذلك « فلم يستطع يوسف أن يضبط نفسه ...

فصرخ : اخرجوا كل إنسان عنى . فلم يقف أحد عنده ، حين عرّف يوسف اخوته بنفسه . « فأطلق صوته بالبكاء ... وقال يوسف لأخته : أنا يوسف . أحيّ أبى بعد ؟ » (تك ٤٥ : ١-٣) .

ونفس التأثر نراه حينما قابل يعقوب فى غربته ، راحيل ابنة خاله .

كانت مصادفة مفرحة ما كان يتوقعها . فلما رآها ، وسقى لها غنمها ، يقول الكتاب « وقبّل يعقوب راحيل . ورفع صوته و بكى . وأخبر يعقوب راحيل أنه أخو أبيها ، وأنه ابن رفقة » (تك ٢٩ : ١١) .

إن دموع الفرح باب طو يل ..

دموع الفرح بالنجاح والتوفيق .

دموع الفرح باللقاء بعد غيبة .

دموع الفرح بعمل الله معنا ، فى أى أنقاذ من ضيقة . وفى حل أى اشكال معقد ...

دموع الفرح بالنجاة ، و بالفرج ...

ما أكثر دموع القديسين فرحاً ...

وليست كلها بكاء على الخطايا .

وهنا نذكر مجالاً آخر للدموع ، أو سبباً لها وهو الصلاة .

الصلاة

يبكى الإنسان فى صلاته، إذا كانت صلاته من عمق مشاعره وعواطفه.

قد يبكى خشوعاً ، وهو يشعر بعدم استحقاقه للوجود فى حضرة الله .

وقد بكى أمام المذبح أو الهيكل ، وهو شاعر بهيبة المكان ... أو أثناء التناول أيضاً للشعور بنفس الهيبة .

وقد بكى حباً لله ، الذى قبله إليه ، ولم يصنع معه حسب خطاياه وضعفاته .

وقد يبكى تأثراً ببعض كلمات وردت فى الصلاة هزت مشاعره. كما يبكى بعض الآباء الكهنة وهم يصلون قسمة ذبح اسحق فى يوم خميس العهد .

وقد يبكى خجلاً ، لأنه لم يفِ بوعوده التى عاهد الرب بها .

وقد يبكى حزناً على ضعفه وتقصيره ، وعلى مرات سقوطه ، كما نقول فى صلاة نصف الليل .. «اعطنى يارب ينابيع دموع كثيرة ، كما أعطيت فى القديم للمرأة الخاطئة ...» .

وقد تكون دموعه فى صلاته هى دموع التوبة ، لأنه استطاع أن يعود إلى الله أخيراً بعد غيبة طويلة ، أو بعد غيبة عميقة .

إنها مشاعر تختلف من شخص لآخر، يتأثر بها القلب فتدمع العينان .

هناك سبب آخر يدعو إلى البكاء وهو:

الشعور بالعجز

الذى يشعر بقوته وقدرته وسيطرته على المواقف ، ربما من الصعب أن يبكى وهو فى هذا الشعور.

لكن يبكى الذى يشعر فى أعماقه بأنه عاجز، أو غير قادر على التصرف السليم ، أو حائر أمام إشكال .

حينئذ يبكى، إذ ليس أمامه سوى البكاء. وقد يصلى فى

بكائه طالباً حلاً ومعونة من القادر على كل شيء .

هكذا قد نبكي أمام مريض عجز الأطباء عن علاجه ، أو أمام كارثة لا منقذ منها ، أو مأساة قادمة ولا مفر من مواجهتها ، ولا يمكن تفاديها .

ويزداد الألم والبكاء، إن كان هذا الإنسان عاجزاً، وكل من حوله عاجز مثله ، في ذلك الموقف .

أو قد يبكي الإنسان بسبب خطية أو شهوة أو عادة سيطرت عليه ، و يريد أن يتخلص منها ، ولكنه شاعر بعجزه أمامها .

أو بسبب عدو يضغط عليه ، و يذل في الأرض نفسه ، وهو عاجز تماماً عن مقاومته و يبدو أنه لا خلاص ...

هذا الشعور بالعجز، إن اختلط بصلاة وعاطفة ، فلا مفر من الدموع . نتحدث عن سبب آخر وهو :

الشعور بالتخلي

سواء وقف الإنسان وحده ، وتخلى عنه كل الأصدقاء والأحباء . أو بالأكثر الإحساس بتخلي النعمة عنه .

شعور القلب بأن الله قد تركه، حتى لو كان شعوراً خاطئاً، ولكنه موجود، يضغط على نفسه فيتألم و يبكى...

و بخاصة لو حدث هذا الإحساس بالتخلى وسط ظروف ضاغطة ومشاكل مؤلمة...

أو لو حدث التخلى فى سقطات روحية، ظن الإنسان أنه لا قيام منها.

أو أحاطت بالإنسان الكوارث أو ألوان من الفشل المتلاحق. وشعر أن كل هذا بسبب تخلى الله عنه، بسبب خطاياه.

وفى وسط كل هذا يبرز سبب آخر للدموع هو:

الشماتة

وكما قال الشاعر:

كل المصائب قد تمر على الفتى
فتهون غير شماتة الأعداء

إن الشماتة سبب لألم عميق ، سواء من أعداء ، أو من معزين متعبين كأصدقاء أيوب (أى ١٦ : ٢) .

وقد شكا داود النبى كثيراً من هذه الشماتة فى مزاميره .

فقال « ... إلهى عليك توكلت ، فلا تخزنى إلى الأبد ، ولا تشمت بى أعدائى » (مز ٣٥ : ٢) . وصرخ فى مزمور آخر قائلاً « حتى متى الخطاة يارب ؟ حتى متى الخطاة يشمتون » (مز ٩٤ : ٣) .

ونرى أن ميخا النبى يجتذب نفسيته خارج شماتة الأعداء هذه التى تحزن القلب ، فيقول « لا تشمتى بى يا عدوتى ، فإنى إن سقطت أقوم » (مى ٧ : ٨) .

إن استمرت الشماتة تدمى القلب ، وبالتالى تدمع العينين ، إلا للذين ارتفعوا تماماً عن كلام الناس .

حتى القديسون كانت الشماتة الروحية تتعبهم ، وبخاصة ممن يقولون « أين هو الرب إلههم » ... !!

الفصل الخامس

معوقات الدموع

- قسوة القلب .
- إدانة الآخرين .
- العنف .
- الغضب والحقد .
- الحياة فى الخطية
- اللذة والرفاهية .
- التذمر .
- الفخر والكبرياء
- التهاون والفتور .

قسوة القلب

القلب الرقيق الطيب دموعه قريبة .

أما القلب القاسى فتبتعد عنه الدموع .

من السهل أن يبكى بطرس بكاء مراً . ولكن من الصعب أن يبكى فرعون أو أن يبكى هيرودس .

كذلك فإن الشدة والحزم ، قد تمنعان الدموع أيضاً .

لأن الإنسان يستخدم فى ذلك الوقت القوة لا الرقة .

و يستثنى من هذا حالة الحزم النابعة من قلب مملوء من الحب ، كما قيل عن السيد فى تطهير الهيكل :

يا قو يأ ممسكاً بالسوط فى كفه والحب يدمى مدمعك

وفى حديثنا عن القوة والرقة نقول :

إن الدموع عند المرأة أسهل وأكثر مما عند الرجل . ولكن إن بكى الرجل ، تكون دموعه أعمق ...

ذلك لأن شدته أو قوته لم تستطع أن تقاوم المشاعر الجياشة . فلابد أن سبب الدموع كان أقوى ، والانفعال بها كان أشد ...

إن الدموع والقسوة لا يتفقان معاً .

فإن كنت تطلب الدموع ، إبعد عن قساوة القلب بقدر ما تستطيع ، وعن مظاهر هذه القسوة . كيف ذلك ؟

نضرب لك الآن بعض أمثلة :

إدانة الآخرين

و بالذات القسوة والشدة فى الحكم على الناس ... هناك أشخاص عنفاء جداً فى أحكامهم . إذا أنتقدوا إنساناً ، ينتقدونه بشدة و بقسوة ، و بقلب خالٍ من الحب ومن العطف ، وخالٍ من تقدير ظروف الآخرين ...

الإنسان الذى فى هذه الحالة ، لا يمكن أن تسيل دموعه ، إلا إذا تخلص من هذه المشاعر !

الحديث عن أخطاء الناس ، أو التشهير بهم ، سبب من الأسباب الرئيسية التى تمنع الدموع . وفى نفس الوقت فإن هذا التشهير سبب من

الأسباب التى تقسى القلب ، وتبعده عن الرقة التى يتصف بها أولاد الله ...

إدانة الآخرين ليست فقط قسوة وعنفاً . وإنما فيها أيضاً ينسى الإنسان خطاياه الخاصة .

والذى ينسى خطاياه ،يبعد عن أهم مصدر للدموع ...

أما الإنسان الروحى ، فإنه يشفق على الخطاة ، متذكراً قوة العدو وحروبه ، وضعف الطبيعة البشرية ، ومتذكراً أيضاً خطاياه وسقطاته . فيبكى على الساقطين كما يبكى على نفسه ... وفى ذلك قال القديس بولس الرسول :

« اذكروا المقيدين ، كأنكم مقيدون معهم ، والمذلين كأنكم أيضاً فى الجسد » (عب ١٣ : ٣) .

رجل الدموع يمكن أن تكون عنده هذه المشاعر. ومن عنده هذه المشاعر يمكن أن يقتنى الدموع .

وهكذا كان القديس يوحنا القصير... حينما كان يرى إنساناً يخطىء ، كان يبكى و يقول : هذا الإنسان سقط اليوم . وقد أسقط أنا مثله غداً وربما يخطىء هوو يتوب ويخلص بينما أخطىء أنا ولا أتوب ...

وهكذا كانت خطايا الناس تدفعه إلى البكاء ، ولا تدفعه إلى الإدانة .

والقديس موسى أيضاً كان باستمرار يتذكر خطاياه ، لا خطايا الناس ....

وهناك قاعدة روحية تقول : إن الإنسان يسقط عادة فى الخطايا التى يدين الناس عليها ...

والله يسمح بهذا ، لكى يخزى كبرياء الذين يدينون غيرهم . لكى نعرف أننا إذا سرنا حسناً ، فليس هذا لقوة فينا ، إنما بسبب معونة تأتينا من فوق .

فإن أدنَّا غيرنا بقساوة قلب ، تتخلى عنا النعمة الحافظة ، فنسقط مثلهم ...

وحينما نسقط ، ونبكى على خطايانا ، شاعرين بضعفنا ، وبأن الخطية «طرحت كثيرين جرحى ، وكل قتلاها أقوياء» (أم٧ : ٢٦) . حينئذ ترق قلوبنا ، ونشفق على غيرنا ، ولا ندين الساقطين ، بل نبكى من أجلهم ... شاعرين بأن الشيطان نشيط ، ونشاطه يدعونا إلى الخوف والحرص والبكاء ، وطلب معونة .

مثلما نسمع أن أسداً فى الطريق قد افترس إنساناً ...

لا ندين هذا الإنسان ، بل نبكى عليه ، ونبكى على أنفسنا من خطر هذا الأسد المفترس ، الذى شبّه به الرسول عدونا الشيطان الذى يجول ملتمساً من يبتلعه (١بط ٥ : ٨) .

أو مثلما نسمع عن وبأ أصاب آخرين فماتوا ... هل نبكى عليهم أم ندينهم .. !؟

هكذا الخطية ، وهكذا الشيطان ، وهكذا حال الذين يسقطون ، والذين يدينوهم ...

الإدانة إذن هى قسوة، ونسيان لقوة العدو، ونسيان للضعف البشرى . وكلها أمور تبعد الدموع ... و بنفس الوضع نتحدث عن الإدانة المستترة .

ونقصد بالإدانة المستترة التى تختفى وراء النصح أو التوبيخ أو الإنذار.

ولعلك تسأل : هل معنى هذا إننى لا أنصح أحداً ولا أحذره ؟

أقول لك : يمكن أن تفعل هذا، ولكن فى محبة ، وليس بروح التعالى . وتذكر قول بولس الرسول لرعاة أفسس :

« متذكرين أننى ثلاث سنوات ليلاً ونهاراً ، **لم أفتر عن أن أنذر بدموع كل أحد** » (أع ٢٠ : ٣١) .

إنه ينذر ، ولكن بدموع ... بدموع فيها حب ورقة ، وخوف عليهم من السقوط ، وتقدير للضعف البشرى .

تذكر أن الطبيب حينما ينزع جزءاً فاسداً من مريض ، إنما يفعل ذلك بحنو ، دون أن يشمئز من فساد هذا الجزء الذى يقطعه ، ودون أن يدين المريض بسبب ذلك .

سبب آخر يمنع الدموع وهو:

العنف

الإنسان العنيف لا يبكى . إنما عنفه يمنع عنه الدموع ... أياً كان هذا العنف ونوعه ...

فالقاتل لا يبكى . وقد يكون القتيل فى حالة تذيب القلوب ، وقد يتوسل إليه . ولكن قساوة قلبه فى العنف ، تجفف عينيه ...

قد يبكى فيما بعد ، حينما يرجع إلى نفسه و يتذكر قسوته ...

وكذلك المخرب والثائر ...

وحتى العنيف فى المنافسة أو المناقشة ، أو الخصومات ، أو النزاع مع الناس أياً كان نوعه ...

الذى يصيح و يعلو صوته فى نقاشه مع الآخرين ، هذا تهرب منه الدموع .

والذى يحل المشاكل بعنف ، أو يفرض عقوبات على مرؤوسيه بعنف ، أو يستخدم العنف فى المعاملات ... هذا أيضاً بعيد عن موهبة الدموع . و بالمثل الغضوب :

الغضب والحقد

من المحال أن إنساناً غضوباً ، تكون له موهبة الدموع .

الدموع كما قلت تتمشى مع رقة القلب . والإنسان الغضوب يتصف بالحدة والعنف والقسوة . وهذه كلها ضد الدموع .

من الجائز أن إنساناً غضوباً ، يبكى من الغيظ والقهر.

مثلما بكى عيسو لما اكتشف أن أخاه يعقوب أخذ منه البركة (تك ٢٧ : ٣٨) .

ولكن هذه ليست من الدموع الروحية التى نتحدث عنها .
ومن الجائز أن دموع الغيظ والقهر توجد فى العلاقات العائلية ، أو مجالات العمل... إنها دموع ، ولكن ليست من النوع الروحى... ربما يدفع إليها اليأس أو العجز أو الفشل... أما الدموع الروحية فتصدر من قلب نقى ، رقيق ، حساس ...

الذى يقتنى موهبة الدموع ، ثم يسلك فى الطبع الغضب ، يفقد تلك الموهبة ...

ويجد أن دموعه قد جفت ، أو فارقته ، على الأقل فى وقت غضبه ... فإن كان الله قد وهبك دموعاً ، ثم فقدتها ، أدخل إلى داخل نفسك ، وابحث عن السبب وعالجه . واسأل نفسك : هل كان الغضب من أسباب فقدك للدموع .

الغضوب يركز أثناء ثورته على أخطاء غيره .

أما صاحب موهبة الدموع ، فيركز على أخطائه الخاصة .

تركيزه على أخطائه الخاصة يبكيه ، متذكراً ضعفه وسقوطه وانفصاله عن الله ... أما التفكير أثناء الغضب فى أخطاء الغير ، فإنه قد يثير المشاعر والأعصاب ، كما أنه ينسى الإنسان خطاياه . وقت

البكاء، هو وقت مشاعر وأحاسيس. أما وقت الغضب، فهو وقت أعصاب وثورة وقسوة. وقت البكاء يسوده الحب، وأما وقت الغضب فتسوده الكراهية...

لذلك لا تلم غيرك، إنما لم نفسك. فالآباء يقولون:

ملامة النفس تمنع الغضب ...

وإن غضب الذى يلوم نفسه، فإنما يغضب على نفسه، لا على غيره... لذلك نقوا أنفسكم من الغضب، إن أردتم أن يهبكم الله موهبة الدموع...

كذلك فإن الحقد أصعب وأقسى من الغضب.

إن كانت إدانة الآخرين تمنع الدموع، والغضب يلاشيها. فمن باب أولى الحقد والكراهية والعداوة، لأنها درجات أكبر من الغضب واعنف. وتدل على قسوة فى القلب، ورفض لغفران إساءة المسيء... وكلها تعكر القلب وتفقده رقته.

من الأسباب الأخرى التى تعوق الدموع: الحياة فى الخطية.

الحياة فى الخطية

الألم بسبب الخطية ، يجلب الدموع و يكون فى التوبة .

أما الحياة فى الخطية والتلذذ بها ، فيمنعان الدموع .

لأنه على أى شىء يبكى الإنسان ، إن كان مسروراً بحياة الخطية التى يعيشها ؟! إن البكاء قد يأتى من وخز الضمير الثائر عليه . أما فى التمتع بالخطية ، فإن الضمير يكون نائماً أو مخدراً !! والإنسان تقوده المتعة لا الضمير .

بل الإنسان فى الخطية ، قد يبكى إن فقد الخطية !!

وتكون دموعه فى هذه الحالة خطية ... مثلما بكى بنو اسرائيل فى البرية ، ما لم يجدوا لحماً يأكلونه (خر١٦ : ٣) .. ومثلما يبكى إنسان مدمن ، لا يجد ما اعتاده من المخدرات .. أو كما يبكى محب المال ، إن فقد أمواله! أو كما يبكى محب اللذة الجسدية ، إن اغلقت أبوابها أمامه .. أو محب العظمة والسلطة إن فقدها ، وأصبح شخصاً عادياً .. !! وكلها دموع عالمية أو مادية ، تعتبر خطية تضاف إلى الخطايا السابقة ...

فهذه الدموع الخاطئة تدل على محبة عميقة للخطية .

وبالتالى تدل على انفصال القلب عن الله... كما تدل على تعلق القلب بالعالم والماديات . وليست هى نوع الدموع الروحية التى نتحدث عنها .

على أنه قد يحيا الإنسان أحياناً فى الخطية ، وتوجد له دموع روحية . فكيف ذلك ؟ نذكر لهذا مثلاً .

قد يحيا إنسان فى خطية ، مقهوراً من عادة مسيطرة عليه . فيبكى إذ يريد من كل قلبه أن يتخلص من الخطية ، وارادته أضعف من أن تساعده !

هذا الإنسان تنتشله النعمة ، ويعتبر الله بكاءه بداية للتوبة . وينظر إلى قلبه لا إلى عمله ، إن كان صادقاً فى نيته وفى دموعه... وإن كان يفعل الخطية وهو غير متلذذ بها ، إنما وهو مقهور منها... فاللذة أيضاً تفقد الدموع...

اللـذة والرفـاهيـة

اللذة بطبيعتها تتناقض مع الدموع .

والذى يعيش فى لهو ومتعة ورفاهية، يتمتع بالمال والمادة والسلطة وكل متعة عالمية... هذا الإنسان من أين تأتيه الدموع ... ؟!

بل إنه يحتاج إلى دموع الناس عليه ،

لكيما يصل إلى حياة الدموع .

الذى يحيا حياة اللذة والمتعة ، يكره الدموع، لأنها تعكنن عليه !! وتقطع حبل متعته ، وتكون كنشاز فى لحن ملاذه !! مثل هذا، يحب العالم والأشياء التى فى العالم. وتخدره كل هذه الأشياء ، حتى لا يفكر فى أبديته !

لذلك أبعد عن حياة اللذة ، حينئذ تدرك تفاهتها ، فتبكى على الأيام الذى ضيعتها فيها ...

وحينئذ تنشد مع سليمان الحكيم «الكل باطل وقبض الريح» «باطل الأباطيل ، الكل باطل. ولا منفعة تحت الشمس» (جا ١) ... لقد قال هذه العبارات إنسان مجرب ، ذاق كل متع الدنيا ، على تعدد أنواع ، وقال فى ذلك « ... ومهما اشتهته عيناى ، لم أمنعه عنهما» (جا ٢ : ١٠) . ومع ذلك وجد الكل الباطل ،

ووجد أنه «بكآبة الوجه يصلح القلب» (جا ٧ : ٣) .

ينبغى أن تعرف أن حياة اللذة، هى ضدك وليست لك . وهى تنسيك حقيقتك !

الإبن الضال حينما كان يعيش فى حياة اللذة العالمية ، ما كان يدرى ما هو فيه . ولكنه وصل إلى التوبة وإلى أنسحاق النفس ، حينما عاد إلى نفسه ، وشعر بسوء حالته . وعندئذ فقط بدأ حياته الحقيقية كابن ، وعاد إلى بيت أبيه ...

كذلك نقول : إن الاستغراق فى الضحك والمزاح ، يمنع الدموع .

حقاً كما قال الحكيم «للبكاء وقت ، وللضحك وقت» (جا٣ : ٤) . ولكن مع ذلك فإن الذين يعيشون فى حياة كلها مزاح وضحك ، من الصعب أن يصلوا إلى حياة الدموع ...

على الأقل فى وقت ضحكهم ، يكونون بعيدين عن الدموع .

إذن ، إن كانت حياة اللهو والضحك واللذة والمتعة ، تمنع الدموع ... فإننا نقول من الناحية العكسية : إن التجارب والضيقات

والأمراض والآلام هى من مسببات الدموع ... ففيها يشعر الإنسان بضعفه ، وبثقل النير عليه ، فيتجه إلى الله ، ويسكب دموعه أمامه ...

ولكن على شرط أن يقبل التجارب والضيقات بغير تذمر.

التذمر

إن التذمر سبب من الأسباب التى تمنع الدموع .

فإن الإنسان فى تذمره يكون ساخطاً ، وشاعراً بأنه لا يستحق كل هذا الذى يحدث له . وفى سخطه وتذمره يفقد التواضع و يفقد الإنسحاق اللذان يجلبان الدموع ...

وفى التذمر ، يشعر الإنسان أنه مظلوم ، وبالتالى يدين من ظلمه . وهكذا ينتقل من التفكير فى خطاياه ، إلى التفكير فى خطايا غيره ... وهذا ضد منهج الدموع ...

والذى يتذمر قد يتذمر على الله نفسه ، فيجدف !!

وفى كل ذلك يكون بعيداً عن الجو الروحى الذى تسيل فيه

الدموع ... بل إنه فى تذمره قد يدخل فى قساوة القلب ، وفى الاعتداد بالذات ، وفى الغضب والحقد ... ولا يمكن أن يجد دموعاً وسط هذه المشاعر الخاطئة كلها ...

إن كانت الدموع تتفق مع التواضع والانسحاق ، فلاشك أن كبرياء القلب وكبرياء التصرف ، كلها تمنع الدموع ...

وإن كانت الدموع تتفق مع لوم النفس وتبكيت الذات ، فبالتالى يكون الفخر والحديث عن فضائل النفس ، من الأسباب المانعة للدموع .

فلا يمكن أن يبكى الإنسان وهو سعيد بذاته ، يرفع شأنها ، ويمتدح صفاتها !!

نفس الكلام نقوله عن العظمة ، ومحبة المناصب والمتكآت الأولى ، ومحبة الكرامة ومديح الناس ... فكل هذه تمنع الدموع تماماً ... لأن الدموع تتفق مع الشعور بالضعف ، وليس مع الشعور بالقوة والعظمة والسلطان .. !

كذلك فإن الافتخار بالدموع ، يمنع الدموع .

الفخر والكبرياء

فقد تسلك فى الطريق الروحى السليم ، وفى حياة التوبة وحياة الاتضاع والانسحاق ، وفى كل مسببات الدموع... فإن أتتك الدموع ، يحاربك الشيطان بها لكى يوقعك فى المجد الباطل . فإن فرحت بالدموع ، أو افتخرت بها ، أو أظهرتها قصداً ، حينئذ يمكن أن تمتنع عنك وتنقطع... ولذلك قال القديسون :

إذا ما أتتك الدموع ، فلا تنشغل بها .
إنما فكّر فى الأسباب التى جلبت الدموع .

إن بكيت مثلاً بسبب خطاياك ، فكّر فى بشاعة تلك الخطايا ، فيزداد انسحاقك وتزداد دموعك... وحاذر أن تفتخر بدموعك أو تفرح بها ، لأنك فى هذا الوقت تكون قد نسيت خطاياك ، وانتقلت من الانسحاق إلى الكبرياء ، أى انتقلت من مسببات الدموع إلى موانع الدموع .

ولتكن دموعك بينك وبين الله ، لا تكشفها للناس ، ولا تتكبر بسببها. فكل ذلك يمنعها بعد مجيئها...

التهاون والفتور

الدموع تناسبها الحرارة الروحية بكافة أنواعها، سواء حرارة الحب، أو حرارة التوبة، أو حرارة التأثر.

أما الإنسان الفاتر، فليست له دموع.

يحتاج أن يعود إلى محبته الأولى، وإلى حرارته الأولى، فتعود إليه الدموع. «فاذكر من أين سقطت وتب» (رؤ ٢ : ٥).

وقد يأتى الفتور نتيجة للتهاون أو للرفاهية.

عالج التهاون إذن فى حياتك الروحية، واحذر الرفاهية.

إن داود النبى كان فى مذلته يمزج شرابه بالدموع (مز١٠٢ : ٩) «وبدموعه كان يبل فراشه» (مز٦ : ٦). أما فى حياة الرفاهية، فلم تكن له دموع، بل كانت هناك الشهوة والخطية.

كذلك كان إبنه سليمان لم يستفد من الرفاهية، بل انتفع لما عرف أن الكل باطل وقبض الريح.

صلّ إذن وقل : اعطنى يارب ينابيع دموع كثيرة.

فهرست الكتاب

صفحة

مقدمة الكتاب ١

قمة الدموع ٧

تطويب البكاء ٨

أنواع من الدموع ١١

دموع الصلاة ١٣

دموع الندم والتوبة ١٤

دموع الحزن ١٨

دموع الفراق ٢٠

دموع التأثر ٢٣

دموع المشاركة ٢٥

دموع الفرح ٢٦

دموع مرفوضة (أنواع) ٢٧

دموع الشهوة ٢٩

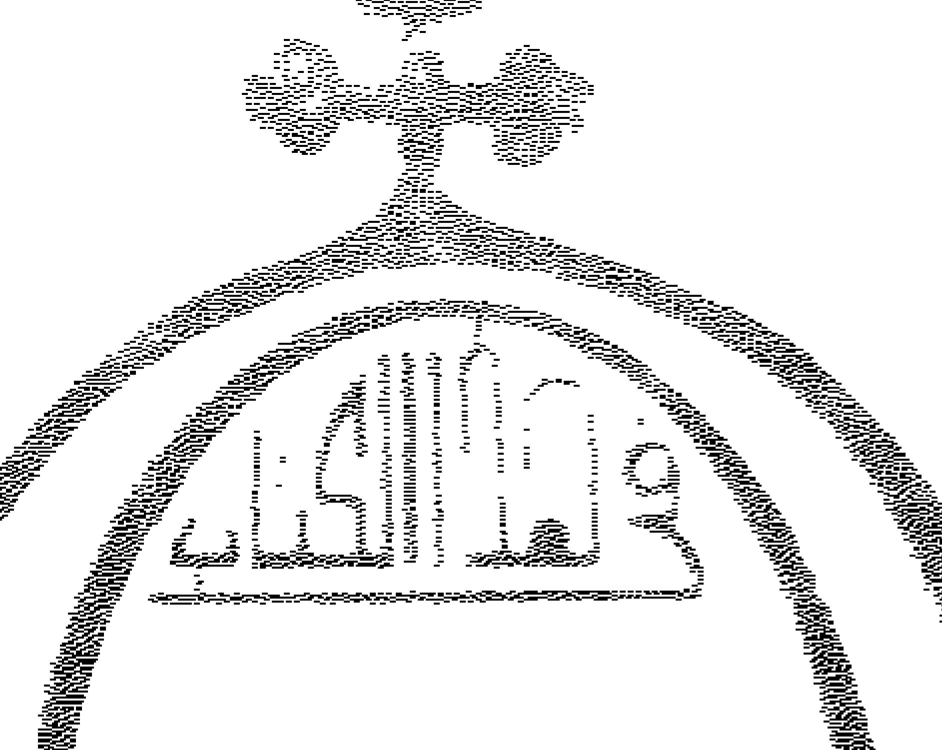
الدموع فى الخدمة ٣١

أسباب الدموع فى الخدمة ٣٧

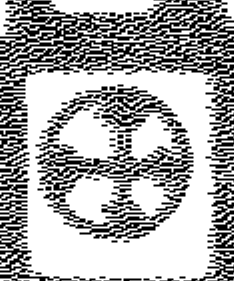
الدموع فى حياة القديسين ٣٩

مسببات الدموع ٥١

الرقة والحساسية ٥٢
الشعور بتفاهة العالم ٥٤
تذكر الخطايا ٥٧
التجارب والضيقات ٦٣
تذكار الموت ٦٧
الفرح والتأثر ٧٠
الصلاة ٧٢
الشعور بالعجز ٧٣
الشعور بالتخلى ٧٤
الشماتة ٧٥
معوقات الدموع ٧٧
قسوة القلب ٧٨
ادانة الآخرين ٧٩
العنف ٨٣
الغضب والحقد ٨٤
الحياة فى الخطية ٨٧
اللذة والرفاهية ٨٨
التذمر ٩١
الفخر والكبرياء ٩٣
التهاون والفتور ٩٤



باسم الآب والابن والروح
القدس الإله الواحد آمين



ما أجمل الدموع في سير القديسين. إنها دليل على حرارتهم الروحية وعمق حبهم لله.

وفي هذا الكتاب نحدثك عن كل أنواع الدموع، الروحي منها وغير الروحي. ثم نركز على الروحي.

ونشرح الدموع في الخدمة وفي سير القديسين وفي أقوالهم.

ثم نذكر مسببات الدموع في الحياة الروحية، وأيضاً معوقاتها لكي تتجنبها ...

فإن كنت تحب الدموع في روحياتك، يمكنك أن تقرأ هذا الكتاب

البابا شنوده الثالث

